الرد على الدهريين

للسيد جمال الدين الافغاني

نقلها من اللغة الفارسية الى اللغة العربية

الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده

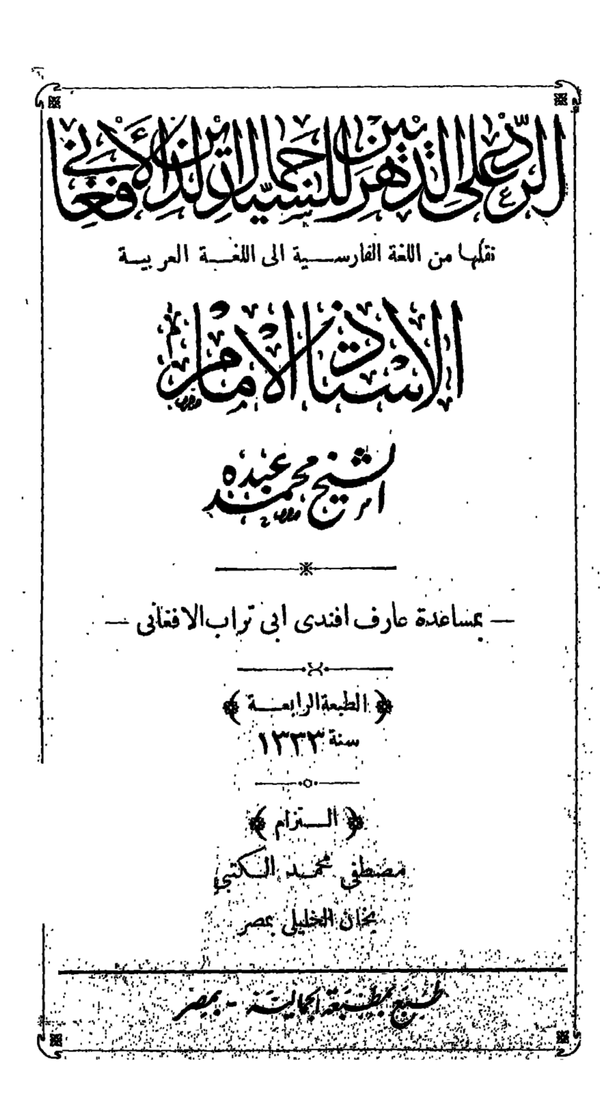
بمساعدة عارف افندي ابى تراب الافغانى

يباع بمكتبة

(على حسن الفيشاوى الكتبي)

بشارع خان الخليلى بمصر

مكتبة ومطبعة الاتحاد الإخوى بالحسين بمصر



الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني

نقلها من اللغة الفارسية الى اللغة العربية

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

— بمساعدة عارف افندى ابى تراب الافغانى —

﴿ الطبعة الرابعة ﴾

سنة ١٣٣٢

﴿ الملتزم ﴾

مصطفى محمد الكتبي

بخان الخليلي بمصر

طبع بمطبعة الجمالية — بمصر

السيد جمال الدين الحسيني الافغاني

﴿ولد سنة ١٢٥٤ ﻫ (١٨٣٩ م) وتوفى سنة ١٣١٤ ﻫ (١٨٩٧ م)﴾

تمهيد

قد تمر القرون وتتوالى الأجيال والناس على ماساقتهم اليه الحاجة من شؤون معائشهم لا يفقهون غثها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من أبنائها أفراداً يميطون عن أسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا أستار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فهدوا سبل الاختراع والاكتشاف . ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس وبينوا ما أودعه الخالق فى خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من أولئك الأفراد الا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى اذا كادوا يرجعون الى غيهم جادت عليهم بآخر ينفث فيهم روحاً حية فيهبون من رقادهم ويعودون الى رشدهم ريثما يأتيهم ثالث .

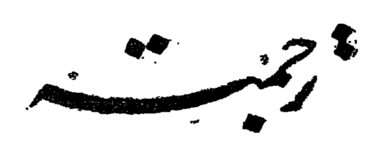
هكذا كان شأن العالم من بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط

وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضئ بنبراسهم

ولكن الله فى خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ فى بعض الاجيال أفراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال فتحيط بهم بيئات لا تصلح لنماء ما يغرسون فيذهب سعيهم هباءً منثورا

ولما كان الانسان لا يقدّر العمل إلا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغانى رحمه الله فقد نشأ قطباً من أقطاب الفلسفة وعاش ركنا من أركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا ألف كتاباً على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا أعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدوّن شيئاً من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الأجيال خلفاً عن سلف . فعسى أن لا نحرم من مريدى الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك





هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ولد فى بيت شرف وعلم بقرية أسعد آباد من قرى كنر من أعمال كابل ببلاد الافغان سنة ١٢٥٤ ه (١٨٣٩ م) ويتصل نسبه الى السيد على الترمذى المحدث المشهور ويرتقى الى الامام الحسين بن على بن ابى طالب . وآل هذا البيت عشيرة كبيرة تقيم فى خطة كنر ولها منزلة عليا فى قلوب الافغانيين لحرمة نسبها وكانت تملك جزءاً من أرض الافغان حتى سلب الملك منها دوست محمد خان جد الأمير الحالى وأمر بنقل والد السيد جمال الدين و بعض أعمامه الى مدينة كابل وجمال الدين لا يزال فى الثامنة من عمره فعنى والده فى تربيته وتثقيفه فتلقى مبادئ العلوم العربية والتاريخ . وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف . والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية و إلهية . والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ونظريات الطب والتشريح . وكانت ملامح النجابة والذكاء ظاهرة فيه منذ نعومة أظفاره فأتم هذا كله وهو فى الثامنة عشرة من عمره

ثم عرض له سفر الى بلاد الهند فاقام بها سنة و بضعة أشهر ينظر فى بعض

العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة وقدم بعد ذلك الى الأقطار الحجازية لاداء فريضة الحج فقضى سنة ينتقل من بلد الى آخر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) فوقف على كثير من عادات الأمم التى مرّ بها فى سياحته ثم رجع الى بلاده وانتظم فى سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان المتقدم ذكره ولما زحف هذا الأمير الى هراة ليفتحها و يملكها على سلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه فى جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفى الأمير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً طويلا . وتقلد الامارة ولى عهدها شير على خان سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٤ م) وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته و يعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالامارة . وكان فى جيش هراة من اخوة الأمير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين فانتصر السيد جمال الدين لمحمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا فى الولايات فذهب كل منهم الى ولايته التى كان يليها من قبل أبيه وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية . و بعد مجادلات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميراً على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان فارتفعت منزلة جمال الدين عنده فاحله محل الوزير الأول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه فى العظائم وما دونها وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين .

لولا سوء ظن الأمير بالأغلب من ذوى قرابته حمله على تفويض مهمات من الأعمال الى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكماً فى قندهار على منازلة عمه شيرعلى فى هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه فى مائتى جندى اخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب فى قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ماالتفت يعقوب خان قائد شيرعلى فوجد ذلك الغر المتهوّر منقطعاً عن جيشه فكرّ عليه وأخذه أسيراً فتشتت جند قندهار وقوى الأمل عند شيرعلى فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شيرعلى وبذلوا له قناطير من الذهب ففرّقها فى الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعد حروب هائلة تغلب شيرعلى وانهزم محمد اعظم وابن أخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخارى وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر فى مدينة نيسابور

أما السيد جمال الدين فبقى فى كابل لم يمسسه الأمير بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاد العامة عليه حمية لآل البيت النبوى الا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيراً له أن يفارق بلاد الأفغان فاستأذن للحج فاذن له على شرط أن لا يمرّ ببلاد إيران كيلا يلتقى فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت بعد فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٩ م) بعد هزيمة محمد

أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة واجلال الا أنها لم تسمح له بطول الاقامة فى بلادها ولا أذنت للعلماء فى الاجتماع عليه الا تحت مراقبة رجالها فلم يقم هناك الا شهراً ثم سيرته من سواحل الهند فى أحد مراكبها الى السويس فجاء مصر وأقام بها نحو أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه فى بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة

وبعد أيام من وصوله الاستانة قابل الصدر الأعظم عالى باشا فنزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغانى من القباء والكساء والعمامة العجراء وحوّمت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم ولم تمض ستة أشهر حتى سمى عضواً فى مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة فى آرائه ولكنه أشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه عليها رفقاؤه وبينها ماساء شيخ الاسلام اذ ذاك لانها كانت تمس شيئاً من رزقه فارصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ ﻫ (١٨٧١ م) فرغب اليه مدير دار الفنون ان يلقى فيها خطاباً للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه فى اللغة التركية فالح عليه فانشأ خطاباً طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية فاستحسنوه

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون

واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر فى الجمع معظم الوزراء فصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده ببلاغة سحرت عقول السامعين فانكر مشائخ العلم شيئاً من آرائه واتصل الأمر بشيخ الاسلام وكان متغيراً عليه كما علمت فالتمس من الدولة ابعاده عن الاستانة فصدر له الأمر بالجلاء عنها بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود أن شاء الله ففارقها وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها فى أول المحرم سنة ١٢٨٨ ﻫ (٢٢ مارس ١٨٧١ م)

قدم السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف غرش مصرى كل شهر نزلا أكرمته به لا فى مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درًّا وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العامية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامى وكانت مدرسته بيته فعظم أمره فى نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الأخذ عنه وأعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت الألسن بالثناء عليه وانتشر صيته فى الديار المصرية . ثم وجه عنايته لتمزيق حجب الأوهام عن أنوار العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول

الأدبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره و برعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة قليلين

فنبغ من تلامذته في القطر المصري كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطا مضمارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة ومامنهم الا من أخذ عنه أو عن احد تلامذته او قلد المتصلين به . هذا ماحسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتاخرين في تحريم النظر فيها فتمكنوا من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم اخلاط من الناس من مذاهب مختلفة غير ان هذا كله لم يؤثر في مقامه من نفوس العارفين بحاله

وكان رحمه الله على علمه وفضله ميالا الى السياسة فنظر في حال مصر وما آلت اليه من التداخل الأجنبي فعلم ان لا بد من تغير أحوالها وكان قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء فانشا محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوي دعا اليه مريديه من العلماء والوجهاء فصار أعضاؤه نحواً من ثلاثمائة عدا . فلما عظم أمر محفله دخل الخوف قنصل انكلترا فوشى به الى الحكومة و بث الرقباء في المحفل فسعوا فيه فساداً . و في خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك فصرح بامور قوت حجة الساعين وكان قد تولى مصر المرحوم الخديوى السابق توفيق باشا فاصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ ه (١٨٧٩ م)

وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب رسالته فى « نفى مذهب الدهريين »
ولما كانت الحوادث العرابية بمصر دعى من حيدر آباد الى كلكتة وألزمته
حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفات الحرب الانكليزية
ثم أبيح له الذهاب الى أى بلد فاختار الشخوص الى أوربا وأول مدينة
نزلها مدينة لوندرا أقام بها أياماً قلائل ثم انتقل الى باريس فوافاه اليها صديقه
الشيخ محمد عبده المصرى وكانت فى مصر جمعية وطنية اسمها جمعية العروة
الوثقى فكلفته على بعد الدار ان ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة
الاسلامية فانشا « العروة الوثقى » وكلف صديقه المشار اليه بتحريرها وكان
لها وقع حسن فى العالم الاسلامى فنشر منها ١٨ عدداً ثم قامت الموانع
دون استمرارها حيث اقفلت أبواب الهند عنها وشددت الحكومة
الانكليزية فى اساءة من يقرأها

وقضى جمال الدين فى باريس ثلاث سنوات نشر فى أثنائها مقالات فى
جرائدها تبحث فى سياسة روسيا وانكلترا والدولة العلية ومصر ترجمت جرائد
انكلترا كثيراً منها وجرت له ابحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنساوى رينان
فى « العلم والاسلام » فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحجة ثم شخص الى
لندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبرى ليسألاه عن رأيه فى المهدى
وظهوره اذ ذاك ثم عاد الى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها
فاجلوه مكاناً عليًّا

ثم عزم على نجد فاستقدمه شاه الفرس اذ ذاك المرحوم ناصر الدين شاه
على لسان ليراه فسار قاصداً طهران فالتقى فى اصفهان بالأمير ظل السلطان

فلاقى منه اكراما حتى اذا وصل طهران استقبله الشاه احسن استقبال واكثر من الثناء عليه حيثما ذكره حتى فى بلاطه وبين اهله وأولاده وولاه نظارة الحربية على ان يرقيه بعد قليل الى منصب الصدارة

وكان جمال الدين قد درس اخلاق الأمم وعرف تواريخ الدول وتدبر أحوال البرق السياسية على اختلاف الأمكنة والأزمنة مع بلاغته وقوة برهانه فنال لدى أمراء الفرس وعلمائها منزلة قلّ ان ينالها غيره فى مثل حاله فاصبح منزله حلقة علم يأمها سراة البلاد ووجهاؤها يتسابقون الى سماع حديثه فخامر الشاه ريب من أمره مخافة أن يكون وراء ذلك ما يخشى منه على سلطانه فابدى تغيره عليه فادرك جمال الدين ما فى نفسه فاستأذنه فى السفر لتبديل الهواء فأذن له فسار الى موسكو بروسيا فلاقاه أهلها بالتجلة والاكرام لما سبق الى مسامعهم من شهرته ثم شخص الى بطرسبورج وتعرف باعظم رجالها من العلماء والسياسيين ونشر فى جرائدها مقالات ضافية فى سياسة الافغان والفرس والدولة العلية والروسية والانكليزية كان لها دوى شديد فى جو السياسة

واتفق اذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩ فشخص جمال الدين اليها فالتقى بالشاه فى مونيخ عاصمة بافاريا عائداً من باريس فدعاه الشاه الى مرافقته فاجاب الدعوة وسار فى معيته الى فارس فلم يكد يصل طهران حتى عاد الناس الى الاجتماع به والانتفاع بعلمه والشاه لا يرتاب من أمره كان سياحته فى فى أروبا محت كثيرا من شكوكه فكان يقربه منه ويوسطه فى قضاء كثير من مهام حكومته ويستشيره فى سن القوانين ونحوها فشق ذلك على أصحاب

النفوذ وخصوصا الصدر الاعظم فأسر الى الشاه ان هذه القوانين وان تكن لا تخلو من النفع فهي لا توافق حال البلاد فضلا عما ستؤول اليه من تحويل نفوذ الشاه الى سواه فأثر ذلك في الشاه حتى ظهر على وجهه فاحس جمال الدين بالامر فاستأذنه في المسير الى بلدة شاه عبد العظيم على بعد ٢٠ كيلومترا من طهران فاذن له فتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم و يستحثهم على اصلاح حكومتهم فلم تمض ثمانية أشهر حتى ذاعت شهرته في أقاصي بلاد الفرس وشاع عزمه على اصلاح ايران فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك فانفذ الى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه بخفره خمسون فارسا الى حدود المملكة العثمانية فعظم ذلك على مريديه في ايران فثاروا حتى خاف الشاه على حياته

أما جمال الدين فمكث في البصرة ريثما عادت اليه صحته فشخص الى لندرا وقد عرفه الانكليز من قبل فتلقوه بالاكرام ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ليروه و يسمعوا حديثه وكان أكثر كلامه معهم في بيان حال الشاه وتصرفه في المملكة وما آلت اليه حالها في عهده مع حث حكومة الانكليز على السعي في خلعه . وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من المابين الهمايوني بواسطة المرحوم رستم باشا سفير الدولة العلية في لندرا إذ ذاك أن يقدم الى الاستانة فاعتذر بانه في شاغل وقتي لاصلاح بلاده فورد عليه كتاب آخر وفيه ثناء وتحريض فأجاب الدعوة تلغرافياً على أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان ثم يعود . فقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فطابت له فيها الاقامة لما لاقاه من التفات الحضرة السلطانية واكرام العلماء ورجال السياسة

ومازال فيها معززا مكرماً وجيهاً محترماً حتى داهمه السرطان فى فكه أواخر العام الماضى وامتد الى عنقه فتوفاه الله فى ٩ مارس (١٨٩٧م) واحتفل بجنازته ودفنه فى مدفن « شيخلر مزارلغى » قرب نشان طاش

﴿ صفاته ومناقبه ﴾

﴿ صفاته الشخصية ﴾ كان أسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز ربعة ممتلىء البنية أسود العينين نافذ اللحظ جذاب النظر مع قصر فيه فاذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ولكنه لم يستخدم النظارات وكان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة

﴿ طعامه ﴾ كان قانعاً قليل الطعام لا يتناوله الا مرة فى النهار ويعتاض عما يفوته من ذلك بما يشربه من منقوع الشاى مراراً فى اليوم والعفة فى الطعام لازمة لمن يعمل اعمالا عقلية لان البطنة تذهب الفطنة . وكان يدخن نوعاً من السيكار الافرنجى الجيد ولشدة ولعه بالتدخين وعنايته فى انتقاء السيكار لم يكن يركن الى أحد من خدمه فى ابتياعه فيبتاعه هو بنفسه

﴿ مسكنه ﴾ كان يقيم فى أواخر أيامه بقصر فى نشان طاش بالاستانة أنعم عليه به جلالة مولانا السلطان وفيه الاثاث والرياش وعربة من الاصطبل العامر يجرها جوادان واجرى عليه رزقا مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر . فكان قبل مرضه الاخير يقيم معظم النهار فى منزله فاذا كان الاصيل ركب العربة لترويح النفس فى متنزه كاغدخانه بضواحى الاستانة وكان كثير القيام لا ينام الا الغلس الى الضحى

﴿ مجلسه وخطابه ﴾ كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم اذا ظن فى زيارته تزلفا . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم الا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية واذا آنس من سامعه التباساً بسط مراده بعبارة أوضح فاذا كان السامع عامياً تنازل الى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم فى الشرق أخطب منه . وكان قليل المزاح رزيناً كتوماً قد يخاطب عشرات من الناس فى اليوم فيبحث مع كل منهم فى موضوع يهمه فاذا خرج جليسه كان خروجه آخر عهده بذلك الموضوع حتى يعود هو اليه بشانه

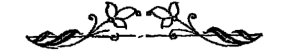
﴿ أخلاقه ﴾ كان حر الضمير صادق اللهجة عفيف النفس رقيق الجانب وديعا مع أنفة وعظمة ثابت الجاش قد يساق الى القتل فيسير اليه سير الشجاع الى الظفر وكان كريم النفس راغبا عن حطام الدنيا لا يدخر مالا ولا يخاف عوزاً ومما رواه الاديب رحمه الله ان جمال الدين لما أبعد من مصر أنزل فى السويس خالى الجيب فاتاه السيد النقادى قنصل ايران فى ذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم قدموا له مقداراً من المال على سبيل الهدية والقرض الحسن فرده وقال لهم « احفظوا المال فانتم اليه أحوج ان الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب » وكان مقداماً حاثا على الاقدام فلا يخرج جليسه من بين يديه الا وقد قام فى نفسه محرض على العلى منشط على السعى فى سبيلها ولكنه كان على فضله لا يخلو من حدة المزاج ولعلها كانت من اكبر الاسباب لما لاقاه من قواقب الوشاية

﴿ عقـله ﴾ كان ذكيّـا فطناً حادالذهن سريع الملاحظة يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتـك أستار السرائر دقيق النظر فى المسائل العقلية قوى الحجة ذا نفوذ عجيب على جلسائه فلا يباحثه أحد الا شعر بانقياد الى برهانه وبما لا يكون البرهان بحـد ذاته مقنعاً . وكان مع ذلك قوى الذاكرة حتى قيل انه تعلم اللغة الفرنساوية أو بعضها وصار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئا كثـيراً فى أقل من ثلاثة أشهر بلا أستاذ إلا من علمه حروف هجائها يومين

﴿ علومه ﴾ كان واسع الاطلاع فى العـلوم العقلية والنقليـة وخصوصاً الفلسفة القديمة وفلسفة تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامى وسائر أحوال الاسلام وكان يعرف اللغات الافغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنساوية جيدا مع المام باللغتين الانكليزية والروسية وكان كثـير المطالعة لم يفته كتاب كُتب فى آداب الامم وفلسفة أخلاقهم إلا طالعهُ . واكثر مطالعته فى اللغتين العربية والفارسية

﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخـذ من مجمل أحواله ان الغرض الذى كان يصوب نحوه اعماله والمحور الذى كانت تدور عليـه آماله توحيد كلمـة الاسلام وجمع شتات المسلمين فى سائر أقطار العالم فى حوزة دولة واحدة اسلامية تحت ظل الخـلافة العظمى وقد بذل فى هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسباً ولـكنه مع ذلك لم يتوفق الى كل ما أراده فقضى ولم يدون من بنات أفكاره الا رسالة فى نفى مذهب

الدهريين و رسائل متفرقة فى مواضيع مختلفة قد تقدم ذكرها ولكنه بث
فى نفوس أصدقائه ومريديه روحاً حية حركت هممهم وحددت أقلامهم
فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم



نقلا عن مجلة الهلال فى (١ ابريل سنة ١٨٩٧) (٢٩ شوال سنة ١٣١٤)
(٢٤ برمهات سنة ١٦١٣)

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على الهداية . ونعوذ به من الغواية . ونصلى ونسلم على خاتم رسله . وآله وصحبه هداة سبله . وبعد فقد أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل . محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسينى الافغانى . أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر مالا يحتاج معه الى الوصف واما الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لارغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين مالم يجمعه مطول فى طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة مالم يحوه مفصل على تفصيله * دعاه الى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهند الانكليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد اغراءلهم بنبذ الاديان وحل عقود الايمان وإن كثيراً من العامة فتنوا بآرائهم وخدعوا عن عقائدهم وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ماتدعيه تلك الجماعة

الضالة وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولوى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الاعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند فاجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بانشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه وقد حدانى علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة منه الى الاجتهاد فى نقلها من لغتها إلى اللغة العربية فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأ فغانى تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة ان شاء الله وانا نذكر ترجمة الرقيمين مبتدئين برقيم مولوى محمد واصل وهو

١٦ محرم سنة ١٢٩٨

﴿ بعد رسوم المخاطبة ﴾ يقرع آذاننا فى هذه الأيام صوت نيشر نيشر وانه ليصل الينا من جميع الاقطار الهندية فن الممالك الغربية والشمالية و(أوده) و(بنجاب) و(بنجالة) و(السند) و(حيدر آباد الدكن) ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيشرى) و يظهر لنا ان من يطلق عليهم هذا اللقب ينمو عددهم على امتداد الزمان خصوصاً بين المسلمين ولقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة * ماحقيقة النيشرية * وفى أى وقت كان ظهور النيشريين * وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا ان تقوم عماد المدنية ولا تعدو هذا المقصد أو لها مقاصد أخرى وهل طريقتهم تنافى أصول الدين المطلق أو هى لا تعارضه بوجه ما، وأى نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين فى عالم المدنية والهيئة الاجتماعية الانسانية * فان كانت هذه الطريقة من النحل القديمة فلم لم تنتشر بيننا ولم نعهد لها دعاة إلا فى هذه الاوقات * وان كانت جديدة فما الغاية من احداثها

وأى أثر يكون عن الاخذ بها

ولكن لم يفدنى احد منهم عما سألت بجواب شاف كاف ولهذا التمس من جنابكم العالى ان تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينقع الغلة ويشفى العلة والسلام اه

وهذا رقيم السيد جمال الدين الحسينى الافغانى جوابا عن الرقيم السابق

محبى العزيز

النيشر اسم للطبيعة وطريقة النيشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت ببلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الاديان ووضع أساس الاباحة والاشتراك فى الاموال والابضاع بين الناس عامة وقد كدحوا لاجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى اليه وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة وتقلبوا فى مظاهر متعددة وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالزوال

وأى ذاهب ذهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلى له ان لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الانسانية اذ لا ريب فى ان الدين مطلقا هو سلك النظام الاجتماعى ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة . وأول تعليم لهذه الطائفة اعدام الاديان وطرح كل عقد دينى

وأما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلاكها مع طول الزمن على نشأتها فسببه ان نظام الالفة الانسانية وهو من آثار الحكمة الالهية السامية كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة وبهذا السر الالهى انبعثت

;فوس البشر لمحو مآثرها ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم ولم تقم لهم قائمة أمس ولا فى وقت من الاوقات

ولتفصيل ما ذكرنا نتقدم لانشاء رسالة صغيرة أرجو أن تكون مقبولة عند العقل الغريزى لذلك الصديق الفاضل وان تنال من ذوى العقول الصافية نظرة الاعتبار

فى حقيقة مذهب النيشرية والنيشريين و بيان حالهم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب

الدين قوام الامم و به فلاحها ، وفيه سعادتها وعليه مدارها .

النيشرية جرثومة الفساد ، وأرومة الاداد ، وخراب البلاد ، و بها هلاك العباد .

شاع لفظ النيشرية حتى طبق البلاد الهندية فى هذه الايام وأصبحت هذه الكلمة دائرة فى المحافل سيارة فى المجامع وللعامة والخاصة فيها مذاهب وهم وطرائق وهم ، فالغالب منهم يخبط على بعد من حقيقتها فى غفلة عن أصل وضعها

لهذا رأيت من الحق أن أشرح مفهومها واكشف المراد منها وارفع الستار عن حال النيشريين من بداية أمرهم وأعرض للناظرين من شيئاً مفاسدهم وما ألحقوا بالنوع الانسانى من المضار التى خبث أثرها وساء ذكرها مستنداً فى ذلك على التاريخ الصحيح آخذاً من البرهان العقلى بدليل يثبت ان

هذه الطائفة على اختلاف مظاهرها لم يفش رأيها فى أمة من الامم الا كان سبباً فى اضمحلالها وانقراضها

أثبت ثقاة المؤرخين ان حكماء اليونان انقسموا فى القرن الرابع والثالث قبل المسيح الى فئتين ، ذهبت احداهما الى وجود ذات مجردة عن المادة والمدة مخالفة للمحسوسات فى لوازمها منزهة عن لواحق الجسمانية وعوارضها وأثبتت ان سلسلة الموجودات مادية ومجردة تنتهى الى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه مبرإ الذات عن التأليف والتركيب ومحال عند العقل تصور التركيب فيه وجوده عين حقيقته وحقيقته عين وجوده وهو المصدر الاول والموجد الحقيق والمبدع لجميع الكائنات مجردة كانت أومادية ،واشتهرت هذه الطائفة بالمتألهين (الخاضعين لله) ومنهم فيثاغورس وسوقراط وافلاطون وأرسطو ومن أهل مذهبهم كثير ، وذهبت أخرى الطائفتين الى نفى كل موجود سوى المادة والماديات وأن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئاً وراءه وعرفت هذه الطائفة بالماديين ولما سئلوا عن منشا الاختلاف فى صور المواد وخواصها والتنوع الواقع فى آثارها نسبه الاقدمون منهم الى طبيعتها . واسم الطبيعة فى اللغة الفرنسوية (ناتور)وفى الانكليزية (نيشر) ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين . وعند الفرنساويين باسم (نتورليسم) أو (ماتيريليسم) الاول من حيث هى طبيعية والثانى من حيث هى مادية

ثم اختلف هؤلاء بعد اعتقاد أصلهم هذا فى تكوين الكواكب وتصوير الحيوانات وانشاء النباتات فذهب فريق منهم الى ان وجود الكائنات

العلوية والسفلية ونشأة المواليد على ماترى اعماهو من الاتفاق وأحكام الصدفة وعلى ذلك اتقان بنائها وأحكام نظامها لا منشأله الا الصدفة كأنما أدت بهم سخافة الفهم الى تجويز الترجيح بلا مرجح وقد أحالته بداهة العقل

ورأس القائلين بهذا القول ديمقراطيس . ومن رأيه ان العالم اجمع أرضيات وسماويات مؤلف من أجزاء صغار صلبة متحركة بالطبع ومن حركتها هذه ظهرت أشكال الاجسام وهيئاتها بقضاء العماية المطلقة

وذهب فريق آخر الى ان الاجرام السماوية والكرة الارضية كانت على هيئتها هذه من أزل الآزال ولا آزال ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات وزعموا ان فى كل بزرة نباتا تامندمجاً فيها وفى كل نبات بزرة كامنة ثم فى هذه البزرة الكامنة نبات وفيه بزرة الى غير النهاية وعلى هذا زعموا ان فى كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيوانا تام التركيب وفى كل حيوان كامن فى الجرثومة جرثومة أخرى يذهب كذلك الى غير نهاية

وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية فى مقدار متناه وهو من المحالات الاولية

وزعم فريق ثالث ان سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع كما ان الاجرام العلوية وهيآتها قديمة بالشخص ولكن لاشىء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبزور النباتية بقديم وانما كل جرثومة وبزرة هى بمنزلة قالب يتكون فيه ما يشا كله من جرثومة وبزرة أخرى

وفاتهم ملاحظة ان كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة وكذلك الحيوان التام الخلقة قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها

ومال جماعة منهم الى الابهام فى البيان فقالوا ان أنواع النباتات والحيوانات تقلبت فى أطوار وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور حتى وصلت الى هيآتها وصورها المشهودة لنا وأول النازعين الى هذا الرأى (ابيقور) أحد اتباع (ديوجينس الكلبى) ومن مزاعمه ان الانسان فى بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف ثم لم يزل ينتقل من طور الى طور حتى وصل بالتدريج الى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم ولم يقم دليلا ولم يستند على برهان فيما زعمه من ان مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقى الانواع

ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الارض) عن بطلان القول بقدم الانواع رجع المتأخرون من الماديين عنه الى القول بالحدوث ثم اختلفوا فى بحثين . الاول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية . فذهب جماعة الى ان جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عند ما أخذ التهاب الارض فى التناقص ثم انقطع التكون باقتضاء ذلك الطور الارضى وذهبت أخرى الى ان الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصا فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصا بعد ما تبين لهم ان الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم موجب لالتئامها حافظ لكونها وان قوتها الغاذية هى التى تجعل غير الحى من الاجزاء حيا بالتغذية فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ثم صارت الى الانحلال

وظن قوم منهم ان تلك الجراثيم كانت مع الارض عنـد انفصالها عن كرة الشمس

وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من ان الارض عنـد الانفصال كانت جـذوة نار ملتهبة وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها فى تلك النيران المستعرة

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها الى ذروة كمالهـا وتحولها من حالة الخداج (النقص) الى ما نراه من الصور المتقنة والهيئات المحكمة والبنى الكاملة . فنهـم قائل ان لكل نوع جرثومة خاصة به ولكل جرثومة طبيعة تميل بها الى حركة تناسبها فى الاطوار الحيوية وتجتذب اليها ما يلائمها من الاجزاء الغير الحية ليصير جزءًا لها بالتغذية ثم تجلوه بلباس نوعـه . وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوى من عـدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور والحمار مثلا وظهور تماثل النطف فى العناصر البسيطة . فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها . ومنهـم ذاهب الى ان جراثيم الانواع كافة خصوصا الحيوانيـة متماثلة فى الجوهر متساوية فى الحقيقة وليس بين الانواع تخـالف جوهرى ولا انفصال ذاتى ومن هذا ذهب صاحب هذا القول الى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية الى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات وقضاء سلطان القواسر الخارجية

ورأس القائلين بهـذا القول « دروين » وقد ألف كتابا فى بيان ان الانسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج

على تتالى القرون المتطاولة و بتاثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ ﴿ أُوران أُوتان ﴾ ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان فكان صنف اليم وسائر الزنوج ومن هناك عرج بعض افراده الى أفق أعلى وأرفع من افق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى

وعلى زعم دروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك

فان سئل دروين عن الاشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ الا ظنا وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته واشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره فاى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء . أظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه .

وان قيل له هذه اسماك بحيرة أُورال وبحر كسبين مع تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد نرى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيداً فى الالوان والاشكال والأعمال فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلتجأ فى الجواب الا الى الحصر (بالتحريك العجز عن الكلام)

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق أو الحشرات المتباينة فى الخلقة المتباعدة فى التركيب المتولدة فى بقعة واحدة

ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتجلو الى تربة تخالف تربتها فاذا تكون حجته فى علة اختلافها . كأنها تكون كسفة الا كشفا

بل اذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم فى تقمصها وخداجها وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الجوارح والاعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وايداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة وايفاء عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول الى تحديد منافعه وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية لا ريب انه يقبع قبوع القنفذ وينتكس بين أمواج الحيرة يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الابدين

وكأنى بهذا المسكين ومارماه فى مجاهيل الاوهام ومهامه الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان وكأنّ ما أخذ به من الشبه الواهية أُلهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية وانا نورد شيئاً مما تمسك به

فمن ذلك ان الخيل فى سيبريا و بلاد الروسية أطول وأغزر شعراً من الخيل المتولدة فى البلاد العربية وانما علة ذلك الضرورة وعدمها

ونقول ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الامطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أو هو علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة .

وقلته فى البرودة

ومن واهيانه ما كان يرويه (دروين) من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته . وهل صمت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفا من السنين لا يولد مولود حتى يختن والى الان لم يولد واحد منهم مختونا الا لاعجاز

ولما ظهر لجماعة من متاخرى الماديين فساد ما تمسك به اسلافهم نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئات البديعة والاشكال المعجبة والصور الانيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ولكن العلة فى نظام الكون علوية وسفلية والموجب لاختلاف الصور والمقدر لاشكالها واطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء ﴿متير﴾ و ﴿فورس﴾ و ﴿انتليجانس﴾ أى مادة وقوة وادراك

وظنوا ان المادة بما لها من القوة وما يلابسها من الادراك تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات وعندما تظهر بصور الاجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما لابسها من الشعور ما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع فتنشىء لها من الاعضاء والالات ما يفى باداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات الى الازمنة والامكنة والفصول السنوية . هذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعدما دخلوا ألف جحر وخرجوا

من ألف نفق وماهو باقرب الى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم فانهم يرون كسائر المتأخرين ان الاجسام مركبة من الاجزاء الديمقراطيسية . ولا ينطبق رأيهم الجديد فى علة النظام الكونى على رأيهم فى تركب الاجسام

وذلك لانه يلزم على القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بهما عن سائر الاجزاء اذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا باجزاء

و بعد هذا فانى سائلهم كيف أطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الاجزاء و باية آلة افهم كل منها باقيها ما ينويه من مطلبه وأى برلمان « مجلس الشورى » او اى سنات « مجلس الشيوخ » عقدت للتشاور فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التاليف وانى لهذه الاجزاء ان تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته اليهما واذا كانت فى بيض الشاهين والعقاب فمن أين لها العلم بانها تقوم طيراً يا كل اللحوم فلا بد له من منسر ومخلاب يصول بهما فى الصيد لاقتناص ما يحتاج اليه من حيوان ثم ينسر لحمه ليأكله

ومن أين لها أن تعلم وهى فى مشيمة الكلبة انها ستكون على صورة أنثى الجرو ثم تكبر حتى تبلغ حد الادراك ثم تكون حبلى لوقت من الاوقات

وقد تلد أجراء متعددة فى زمن واحد فهى تهيء لطبها حاملات كثيرة على حسب حاجة اجزائها

ومن لهذه الاجزاء المتبددة ان تدرك حاجة الحيوانات الى القلب والرئة والمخ والمخيخ وسائر الاعضاء والجوارح . لو عقلت هذه الطائفة مارمى اليه سؤالى هذا لارتبكت فى أفكارها وانقلبت الى تيهور من الحيرة لا ترفع منه رأساً ولا تحير جوابا الا أن يتخبطهم شيطان الجهل فيقولون ولا يعون إن لكل جزء من هذه الاجزاء الديمقراطيسية علما بجميع ما كان وما يكون وبجميع ما فى العالم من الاجزاء علويا كان أو سفليا ولكل منها حرص على مراعاة نظام الكون وأركانه فيتحرك كل منها للانضمام الى الآخر على وفق ما يريده من المصلحة حتى لا يقع الخلل فى شيء من نظام العالم عاما كان أو خاصا وبهذا اقام العالم على ناموس واحد

فان أفضت بهم العماية الى هذا القول قلنا أولا يلزمهم ان كل جزء ديمقراطيسى يحتوى على ابعاد غير متناهية وهو فى صغره لا يدرك ولا بالمكرسكوب (١)

وبيان اللزوم ان العلم عندهم انما هو بارتسام الصور المعلومة فى ذات العالم وهو مادى فى موضوعنا فكل صورة معلومة تأخذ منه بعداً بمقدارها والصور العلمية على هذا الزعم غير متناهية وكلها يرتسم فى مادة الجزء العالم فيكون فى كل جزء وهو متناه الى غاية الصغر أبعاد غير متناهية للصور الغير المتناهية وهذا مما تبطله بداهة العقل

---

(١) النظارة المعظمة

وثانيا ان كانت الاجزاء الديمقراطيسية بالغة من العلم هذا المبلغ وهي من القوة على نحوه اذ لا قوة الا بها على رأيهم فلم لم تبلغ الكائنات وهي هي غاية ما يمكن لها من الكمال ولم تنزل بذواتها الا لام والاوصاب ثم تعانى العناء فى احتمالها أو التخلص منها ولم قصر ادراك الانسان وادراك سائر الحيوانات وهو عين ادراك هذه الاجزاء على هذا المذهب عن اكتناه حالها أنفسها وعجز عن حفظ حياتها

وأعجب من هذا ان المتأخرين من الماديين بعد ما صالحوا كل خرافة لتأييد مذهبهم حاصوا الى الحيرة فى بعض الامور فلم يستطيعوا تطبيقها على أصل من أصولهم الفاسدة لا أصل الطبع ولا أصل الشعور وذلك عند ما رأوا شيئين يختلفان فى الخواص وعناصرهما تظهر عند التحليل متماثلة ولم يجدوا المحيص عن الوقفة بعد ما قدموا من الترهات الا بالحكم على الاجزاء الديمقراطيسية رجماً بالغيب بانها ذوات أشكال مختلفة وعلى حسب الاختلاف فى الاشكال والاوضاع كان الاختلاف فى الآثار والخواص

وبالجملة فهذه عشرة مذاهب اختلف اليها منكروا الالوهية الزاعمون ان لا وجود للصانع الاقدس وهم المعروفون بين شيعهم أو عند الالهيين بالطبيعيين والماديين والدهريين وان شئت قلت نيشريين وناتور اليسميين وماتيير اليسميين وسنأتى على تفصيل مذهبهم ودحض حججها بالبينات العقلية فى رسالة أوسع من هذه ان شاء الله تعالى

ولا يظنن ظان انا نقصد من مقالتنا هذا تشنيعا بهؤلاء (البياجوات) الهنديين (البياجو اسم ايطاليانى اشتهر فى الهند لمن يقلد الماهر فى اللعب

بحركات غير متسقة لاضحاك الناظرين ويعبر عنه فى العربية بالخلابيس وأصله الشيء الا نظام له والطبيعيون فى الهند يمثلون أحوال الدهريين فى أوربا تمثيلا مضحكا) كلا ان هؤلاء لا نصيب لهم من العلم بل ولا من الانسانية فهم بعيدون من مواقع الخطاب ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض . نعم لو أريد انشاء تياترو (ملهى) أو (كطبتلى) (نوع من اللعب يشخصون فيه أحوال ملوك الهند الاقدمين) لتمثل فيه أحوال الامم المتمدنة مست الحاجة الى هؤلاء لاقامة هذه الالاعيب وانما غرضنا الاصلى اعلان الحق واظهار الواقع والآن نعتمد الشروع فى بيان المفاسد التى جلبها الماديون

﴿ النيشريون ﴾ عبء على نظام المدنية والمضار التى تضعضع لها بناء الهيئة الاجتماعية وكان منشاؤها فشوُّ أفكارهم

مطلب

فى مظاهر الماديين ومقاصدهم

تخالفت مظاهر الماديين فى الاسم والاجيال المختلفة فتخالفت أسماؤهم فكانوا تارة يسمون أنفسهم بسمات الحكماء وينتحلون الحكيم لقبا لافرادهم وأحيانا كانوا يتسمون بسيما دافع الظلم ورافع الجور . وكثيرا ما تقدموا لمسارح الانظار تحت لباس عراف الاسرار وكشفة الحقائق والرموز والواصلين من كل ظاهر الى باطنه ومن كل بارز الى كامنه وقد كانوا يظهرون فى أوقات بدعوى السعى فى تطهير الاذهان من الخرافات وتنوير العقول بحقائق المعلومات . وتارات يتمثلون فى صور محبي الفقراء وحماة الضعفاء

وطلاب خير المساكين . وكثيراً ما تجرأوا على دعوى النبوة ولكن لا على سنن سائر المتنبئين الكذبة كل ذلك توسلا لاجراء مقاصدهم وترويج مفاسدهم

كيفما ظهر الماديون وفي أية صورة تمثلوا وبين أي قوم تجمعوا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم وصدعا متفاقما في بنية جيلهم يميتون القلوب الحية باقوالهم وينفثون السم في الارواح بارائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فما رزئت بهم أمة ولا منى بشرهم جيل الا انتكث فتله وسقط عرشه وتبددت آحاد الامة وفقدت قوام وجودها

كان الانسان ظلوما جهولا . خلق الانسان هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً . جبل الانسان على الحرص وكانه منهوم لشرب الدماء . لم يحرم الانسان من لطف مبدعه فكما أبدعه ألزم الدين وجوده فتمسك الناس منه باصول وانطبعوا به على خصال توارثها الابناء عن الاباء في قرون بعد قرون ومهما غيروا وبدلوا كانت بقاياما ورثوه لا تزال تشرق على عقولهم بانوار من المعرفة يهتدون بها الى سعادتهم ويقيمون في ضوئها أساس مدنيتهم ولم يبطل اثرها في تعديل أخلاقهم وكف أيديهم عن التطاول الى الشرور والمفاسد وبهذا كان للاقدمين من أهل القرون الاولى ما كان لهم من نوع الثبات والبقاء

وطائفة النيشريه كلما ظهرت في أمة سعت في قلع تلك الاصول وافساد تلك الخصال حتى اذا طلع لها بارق من النجاح وهت أركان الامة وانهارت الى هوادة الاضمحلال والعدم وهذه الطائفة هي الآن كما كانت تسلك منهج أسلافها الاولين وانا نوضح ذلك بمجمل من البيان

مطلب

فى ما أفاد الدين من العقائد والخصال

أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الامم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى الى ذرى السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر و يزعها عن مقارفة الفساد و يصدها عن مقاربة ما يبيدها و يددها

﴿ العقيدة الاولى ﴾ التصديق بان الانسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات ﴿ الثانية ﴾ يقين كل ذى دين بان أمته أشرف الامم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ﴿ والثالثة ﴾ جزمه بان الانسان انما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة أن تسمى بيت الاحزان وقرار الالام الى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة فى الاجتماع البشرى والمنافع الجمة فى المدنية الصحيحة وما يعود منها بالاصلاح على روابط الامم وما لكل واحدة من الدخل فى بقاء النوع والميل بافراده لان يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة والاخذ بهمم الامم للصعود فى مراقى الكمال النفسى والعقلى

من البين ان لكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها . فمما يلزم الاعتقاد بان الانسان أشرف المخلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ولا ريب انه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات فى صفاتها وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلى وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ حتى قد ينتهى به الحال الى أن يكون واحداً من أهل المدينة الفاضلة يحيي مع اخوانه الوصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة وتلك نهاية السعادة الانسانية فى الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها .

فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية فى معيشتها والثيران البرية فى حالتها ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهاملة والهوام الراشحة التى لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية من عادية ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها وتقضى آجالها فى دهشة الفزع ووحشة الانفراد

هذه العقيدة أشدّ زاجر لابناء الانسان عن التقاطع المؤدّى لافتراس بعضهم بعضاً كما يقع بين الاسود الكاسرة والوحوش الضارية والكلاب العاقرة واشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات وهذه العقيدة أحجى حادٍ للفكر فى حركاته وانجح داع للعقل فى استعمال قوته واقوى فاعل فى تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم

من ضروب الدنايا والرذائل والى أيّ حدّ تصل بهم الشرور وبأيّ منزلة من الدناءة تكون نفوسهم وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية

ومن خواص يقين الأمة بانها أشرف الامم وجميع من يخالفها على الباطل ان ينهض آحادها لمكاثرة الامم فى مفاخرها ومساماتها فى مجدها ومسابقتها فى شرائف الامور وفضائل الصفات وان يتفق جميعها على الرغبة فى فوت جميع الامم والتقدم عليها فى المزايا الانسانية عقلية كانت أو نفسية ومعاشية كانت اومعادية وتابى نفس كل واحد عن إعطاء الدنية والرضى بالضيم لنفسه اولاحد من بنى أمته ولا يسره ان يرى شيئاً من العزة أومقاماً من الشرف لقوم من الاقوام حتى يطلب لامته افضله واعلاه . ذلك انه بهذا الاعتقاد يرى ابناء قومه أليق واجدر بكل مايعد شرفاً انسانياً

فان جارت صروف الدهر على قومه فاضرعتهم اوثلمت مجدهم اوسلبتهم مزية من مزايا الفضل لم تستقر له راحة ولم تفثأ له حمية ولم يسكن له جيشان فهو يمضى حياته فى علاج ماألم بقومه حتى يأسوه او يموت فى أساه

فهذه العقيدة أقوى دافع للامم الى التسابق لغايات المدنية وأمضى الاسباب بها الى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والابداع فى الصنائع وانها لا بلغ فى سوق الامم الى منازل العلاء ومقاوم الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل

وان اردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجد من فتور فى حركات آحادهم نحو المعالى وماذا ترى من قصور فى هممهم عن درك

الفضائل وما ينزل بقواهم من الضعف وما ذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة والى أى هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصاً اذا بغى عليهم الجهل فظنوا انهم ادنى من سائر الملل كطائفة ﴿الدهير﴾ و ﴿مانك﴾

ومن مقتضيات الجزم بان الانسان ما ورد هذا العالم الا ليتزودمنه كمالا يعرج به الى عالم ارفع و يرتحل به الى دار أوسع وجناب أمرع ليرع واديه ويجنى حلبه أن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها و ينساق بحاديها لاضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية خشية ان يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ثم ينصرف همه لابراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له فينجلى كماله من عالم الكون الى عالم الظهور و يرتقى من درجة القوة الى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذايل ولا يناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية و ينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة متنكباً عن طرق الخيانة و وسائل الكذب والحيلة معرضا عن ابواب الرشوة مترفعا عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق وعلى الوجه الذى ينبغى و بالقدر الذى ينبغى لا ياتى فيه باطلا ولا يغفل حقا عاما اوخاصا

فهذه العقيدة احكم مرشد واهدى قائد للانسان الى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والاخلاق الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها الا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه والقيام على صراط العدل المستقيم . هذا الاعتقاد انجح الذرائع

لتوثيق الروابط بين الامم اذلا عقد لها الامراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات . هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الازلية تهب على القلوب ببرد الهـدو والمسالمة فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة والعدل والمحبة زهر الاخلاق والسجايا الحسنة وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور وتنجيه من متائه الشقاء وتعاسة الجد وترفعه الى غرف المدينة الفاضلة وتجلسه على كرسى السعادة

وقد يسهل عليك ان تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع و رشوة واختلاس وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشرة والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفة

مطلب

﴿فى الخصال الثلاث﴾

وأما الخصال الثلاث التى توارثتها الامم من تاريخ قد لا يحد قدما و إنما طبعها فى نفوسهم طابع الدين فاحداها خصلة الحياء وهو انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللائمة و ينحى عليها بالتوبيخ وتأثرها من التلبس بما يعد عند الناس نقصاً وفى الحق أن يقال إن تأثيرها لهذه الخلة فى حفظ نظام الجمعية البشرية وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع أشد من تأثير مئين من القوانين وآلاف من الشرط والمحتسبين فان النفوس اذا مزقت حجاب الحياء وسقطت الى حضيض الخسة والدناءة ولم تبال بما يصدر عنها من

الاعمال فأى عقاب يردعها عن المفاسد التى تخل بنظام الاجتماع سوى القتل وقد لاحظ ذلك ﴿سولون﴾ حكيم اليونان حيث جعل القتل جزاء كل عمل قبيح حتى الكذبة الواحدة

وخلة الحياء يلازمها شرف النفس وهو مما تدور عليه دائرة المعاملات وتتصل به سلسلة النظام وهو مناط صحة العقود والتزام أحكامها وهو معصم الوفاء بالعهود وهو رأس مال الثقة بالانسان فى قوله وعمله وشيمة الحياء هى بعينها شيمة الاباء وسجية الغيرة وانما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها فى ردع النفس عن شىء او حملها على عمل والاباء والغيرة هما مبعث حركات الامم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف وتسنم قمم الشرف والرفعة وتقوية الشوكة و بسط جناح العظمة وتوفير مواد الغنى والثروة

وكل أمة فقدت الغيرة والاباء حرمت الترقى و إن تسنى لها من اسبابه ما تسنى فهى تعطى الدنية ولا تأنف من الخسة وتضرب عليها الذلة والمسكنة حتى ينقضى أجلها من الوجود . ملكة الحياء تنتهى اليها روابط الالفة بين آحاد الامة فى معاشراتهم ومخالطاتهم فان حبال الالفة انما يحكمها حفظ الحقوق والوقوف عند الحدود ولا يكون ذلك الا بهذه الملكة الكريمة . هذه سجية تزين صاحبها بالآداب وتنفر به عن الشهوات البهيمية وتفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله هذا هو الخلق المفرد الذى ينهض بصاحبه لمجاراة ارباب الفضائل و يتجافى به عن مضاجع النقائص و يأنف به عن الرضاء بالجهل والغباوة أو الضعة والضراعة . هذا الوصف الكريم هو منبت الصدق ومغرس الامانة وهما معه فى قرن . هذا الوصف هو

آلة المعلمين والقائمين على التربية والدعاة لمكارم الاخلاق والمولعين بترقية الفضائل صورية ومعنوية يستعملونها فى نصائحهم يذكرون بها الغافل ويحرضون الناكل ويوقظون النائم ويقعدون القائم ألا ترى المعلم الحكيم كيف يعظ تلميذه بقوله ألا تستحى من تقدم قرينك عليك وتخلفك عنه فان لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتوبيخ ولا نفع للتقريع ولا نجاح للدعوة فانكشف مما بينا أن هذه الخلة مصدر لجميع الطيبات ومرجع لكل فضيلة وسلم لكل ترق

ويمكن لنا ان نفرض قوماً هجر الحياء نفوسهم فماذا نرى فيهم سوى المجاهرة بالفحشاء والمنافسه فى المنكر وشوس الطباع وسوء الاخلاق والاخلاد الى دنيات الامور وسفاسف الشؤون وكفى بمشهدهم شناعة أن نرى تغلب الشهوات البهيمية عليهم وتملك الصفات الحيوانية لاراداتهم وتسلطها على أفعالهم

﴿ الخصلة الثانية الامانة ﴾

من المعلوم الجلى أن بقاء النوع الانسانى قائم بالمعاملات والمعاوضات فى منافع الاعمال وروح المعاملة والمعاوضة انما هى الامانة فان فسدت الامانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة وانبترت حبال المعاوضة فاختل نظام المعيشة وأفضى ذلك بنوع الانسان الى الفناء العاجل

ثم من البين أن الامم فى رفاهتها والشعوب فى راحتها وانتظام امر معيشتها محتاجة الى الحكومة باى أنواعها اما جمهورية اوملكية مشروطة اوملكية مقيدة والحكومة فى أى صورها لا تقوم الا برجال يلون ضروبا

من الاعمال فنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الاجانب عليها ويدافعون الوالج فى ثغورها وحفظة فى داخل البلاد ياخذون على ايدى السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ويميل الى الاعتداء من فتك أوسلب او نحوهما ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون يجلسون على منصات الاحكام لفصل الخصومات والحكم فى المنازعات ومنهم أهل جباية الاموال يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها فى ذلك ثم يستحفظون ما يحصلون فى خزائن المملكة وهى خزائن الرعايا فى الحقيقة وان كانت مفاتيحها بايدى خزنتها ومنهم من يتولى صرف هذه الاموال فى المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة كانشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق و بناء القناطر واقامة الجسور واعداد المستشفيات و يودى أرزاق سائر العاملين فى شؤون الحكومة من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها انما تؤدى كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الامانة فان خزيت امانة أولئك الرجال وهم اركان الدولة سقط بناء السلطة وسلب الامن و زاحت الراحة من بين الرعايا كافة وضاعت حقوق المحكومين وفشا فيهم القتل والتناهب و وعرت طرق التجارة وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة وخوت خزائن الحكومة وعميت على الدولة سبل النجاح فان حز بها أمر سدت عليها نوافذ النجاة . لا ريب ان قوماً يساسون بحكومة خائنة إما أن ينقرضوا بالفساد و إما أن ياخذهم جبروت أمة اجنبية عنهم يسومونهم خسفاً و يستبدون فيهم عسفاً فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة

الانقراض والزوال

ومن الظاهر ان استعلاء قوم على آخرين انما يكون باتحاد آحاد العالين والتئام بعضهم ببعض حتى يكون كل منهم لبنية قومه كالعضو للبدن ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الامانة قد ملكت قيادهم وعمت بالحكم افرادهم

فقد كشف الحق ان الامانة دعامة بقاء الانسان ومستقر أساس الحكومات وباسط ظلال الامن والرحمة ورافع ابنية العز والسلطان وروح العدالة وجسدها ولا يكون شيء من ذلك بدونها

واليك الاختيار فى فرض امة عطلت نفوسها من حلية هذه الخلة الجليلة فلا تجد فيها الا فئات جائحة ورزايا قاتلة وبلايا مهلكة وفقراً معوزاً وذلا معجزاً ثم لا تلبث بعد هذا كله ان تبتلعها بلاليع العدم وتلتهمها أمهات لهيم

﴿الخصلة الثالثة الصدق﴾

الانسان كثير الحاجات غير معدودة الضرورات وكل ما يسد حاجاته ويدفع ضروراته وراء ستر الخفاء محجوب وتحت حجاب الغيب مكنون . قذف بالانسان من غيب يجهله الى ظهور لا يعرفه فقام فى بدء إنشائه فى زاوية عماء لا يذكر اسما ولا يعهد رسما . هذا الانسان على ضعفه كانما أحفظ الاكوان قبل وجوده فارصدت له القتال وهيات له النضال فله فى كل مثناة منها كامنة بلية وفى كل حنو رابضة رزية وكل افاق سهمه فى قسى الادوار الزمنية ليصيب مقاتل الانسان

منح الانسان خمسة مشاعر السمع والبصر والذوق واللمس ولكن لا غناء

بها فى هدايته لاقرب حاجاته وارشاده لدفع ماخف من ضرورانه فاحجى ان لا كفاءلها فى استطلاع مكامن البلايا واكتشاف مخابئ الرزايا ليأخذ حذره و يحرز أمره فهو فى حاجة كل الحاجة للاستعانة بمشاعر امثاله من بنى جنسه والاستهداء بمعارفهم ليتفادى بهدايتهم من بعض لاسعات المصائب و يصيب من الرزق ما فيه قوام معيشته وسداد عوزه والاستهداء انما يكون بالاستخبار و لا تتم فائدة الخبر فى الهداية الا ان يكون من مصدر صدق يحدث عن موجود و يحكى عن مشهود والا فما الهداية فى خبر لا واقع له

نعم الكاذب يرى البعيد قريبا والقريب بعيداً أو يظهر النافع فى صورة الضار والضار فى صورة النافع فهو رسول الجهالة و بعيث الغواية وظهير الشقاء ونصير البلاء

فعلى ما تقدم تكون صفة الصدق ركنا ركينا للوجود الانسانى وعماداً للبقاء الشخصى والنوعى وموصل العلائق الاجتماعية بين آحاد الشعوب ولا تتحقق ألفة مدنية اومنزلية بدونه

وانظر فيما اذا فقدت أمة خلة الصدق كيف ينيخ الشقاء بها رواحله و ينفذ سوء البخت فيها عوامله وكيف ينتثر نظامها و يفسد التئامها

مطلب

فى تفصيل غايات النيشرين

هولاء جحدة الالوهية فى أى أمة و بأى لون ظهروا كانوا يسعون ولا يزالون يسعون لقلع أساس هذا القصر المسدس الشكل . قصر السعادة

الانسانية القائم بستة جدران ثلاث عقائد وثلاث خصال . أعاصير افكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع وتلقى بهذا النوع الضعيف الى عراء الشقاء وتهبط به من عرش المدنية الانسانية الى أرض الوحشية الحيوانية

وضعوا مذاهبهم على بطلان الاديان كافة وعدها اوهاما باطلة ومجمولات وضعية و بنوا على هذا ان لا حق لملة من الملل ان تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل اعتماداً على اصول دينها بل الاليق بها على رأيهم ان تعتقد انها ليست اولى من غيرها بفضيلة ولا اجدر بمزية ولا يخفى ما يتبع هذا الرأى الفاسد من فتور الهمم و ركود الحركات الارادية عن قصد المعالى كما تقدم بيانه

قالوا ان الانسان فى المنزلة كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم بل هو أخس منها خلقة وادنى فطرة فسهلوا بذلك على الناس اتيان القبائح وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ومهدوا لهم طرق البهيمية و رفعوا عنهم معايب العدوان

ذهبوا الا انه لا حياة للانسان بعد هذه الحياة وانه لا يختلف عن النباتات الارضية تنبت فى الربيع مثلا وتيبس فى الصيف ثم تعود ترابا والسعيد من يستوفى فى هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية و بهذا الراى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التاثم ودفعوها الى انواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض و يسر والها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع فى كل رذيلة واعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى واعدموها الرغبة فى كشف الحقائق وتعرف اسرار الطبيعة

هذا الوباء المهلك والطاعون الجتاح ﴿أعنى النيشريين﴾ لا يصيب اهل الحياء لامتناع نفوسهم عن منشا كلة البهائم واباثها عن وضع اقدامها فى منازل الحيوانية المحضة وانفتها من الاشتراك فى الاموال والابضاع واباحة التناول مما يختص بالغير منها

ولهذا عمد هولاء المفسدون الى خلة الحياء ليزيلوها او يضعفوها فقالوا ان الحياء من ضعف النفس ونقصها فاذا قويت النفوس وتم لها كمالها لم يغلبها الحياء فى عمل ما كائنا ما كان . فمن الواجب الطبيعى ﴿فى زعمهم﴾ أن يسعى الانسان فى معالجة هذا الضعف ﴿الحياء﴾ ليفوز بكمال القوة ﴿قلة الحياء﴾ و بهذه الدسيسة يخلطون بين الانسان والهمل ويعزجونه بالهامجات من النعم و يوحدون بين حاله وتصرفه و بين حال الدواب والانعام من اباحة كل عمل والاشتراك فى كل شهوة و يهونون عليه اتيان ما تأتيه فى نزواتها

ولا يخفى ان الامانة والصدق منشأهما فى النفس الانسانية امران الايمان بيوم الجزاء وملكة الحياء وقد ظهر ان من أصول مذاهب هذه الطائفة ابطال تلك العقيدة ومحو هذه الملكة الكريمة فيكون تأثير آرائهم فى اذاعة الخيانة وترويج الكذب اشد من تاثير دعوة داع الى نفس الخيانة والكذب . فان منشا الفضيلتين مادام فى النفس اثر منه يبعثها على مقاومة الداعى الى الرذيلتين فيضعف اثر دعوته والمؤمن بالجزاء المبرقع بالحياء ان سقط فى الخيانة او الكذب مرة وجد من نفسه زاجراً عنهما مرة اخرى أما لو محى الايمان والحياء وهما منشا الصدق والامانة من لوح النفس فلا يبقى منها وازع عن ارتكاب ضديهما

ويزيد فى شناعة ماذهبوا اليه ان فى اصولهم الاباحة والاشتراك المطلقين فيزعمون ان جميع المشتهيات حق شائع والاختصاص بشيء منها يعد اغتصاباً كما سيذكر فلم يبق للخيانة محل فان الاحتيال لنيل الحق لا يعد خيانة ومثلها الكذب . فانه يكون وسيلة للوصول الى حق مغتصب ﴿فى زعمهم﴾ فلا يعد ارتكابا للقبيح ولا جرم ان آراء هذه الطائفة مروجة للخيانات باعثة على افتراء الاكاذيب حاملة بالانفس على ارتكاب الشرور والرذائل واتيان الدنايا والخبائث وإن أمة تفشو فيها هذه الحوالق لجديرة بالفناء جالية عن باحة البقاء . فقد انكشف الخفاء عما بيناعن فساد مشارب هذه الطائفة وعن وجه سوقها الامم والشعوب الى مهاوى الهلكة والدمار

واقول انها من أشد الاعداء للنوع الانسانى كافة فان ماهاج فى رؤس ابنائها من الماليخوليا يخيل لهم ان الاصلاح فيما يزعمون ويصور لهم حقيقة النجاح فى صور مايتوهمون فيبعثهم هذا الفساد لايقاد النار فى بيت هذا النوع الضعيف ليمحوا بذلك رسمه من لوح الوجود . فان من الظاهر عند كل ذى ادراك ان افراد هذا النوع يحتاجون فى بقائهم الى عدة صنائع لو لم تكن اهلكتهم حوادث الجو واعوزهم القوت الضرورى والصنائع المحتاج اليها تختلف أصنافها وتتفاوت درجاتها فمنها الخسيس والشريف ومنها السهل ومنها الصعب وهذه الطائفة النيشرية تسعى لتقرير الاشتراك فى المشتهيات ومحو حدود الامتياز ودرس رسوم الاختصاص حتى لا يعلو أحد عن أحد ولا يرتفع شخص عن غيره فى شيء ما و يعيش الناس كافة على حد التساوى

لا يتفاوتون فى حظوظهم . فان ظفرت هـذه الطائفة بنجاح فى سعيها هذا
ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر مالت النفوس الى الاخذ بالاسهل
والافضل فلا تجد من يتجشم مشاق الاعمال الصعبة ولا من يتعاطى الحرف
الخسيسة طلبا للمساواة فى الرفعة فان حصل ذلك اختل نظام المعيشة
وتعطلت المعاملات و بطلت المبادلات وافضى الى تدهور هذا النوع فى
هوة الهلاك نعم ان افكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج احسن من هذه النتيجة
ولو فرضنا محالا وعاش بنو الانسان على هذه الطريقة العوجاء فلا ريب
ان تمحى جميع المحاسن وضروب الزينة وفنون الجمال العملى ولا يكون لبهاء
الفكر الانسانى أثر و يفقد الانسان كل جمال ظاهر أو باطن صورى أو
معنوى و يعطل من حلى الصنائع وتغرب عنه انوار العلم والمعرفة و يصبح
فى ظلام جهل و بلاء ازل و ينقلب كرسى مجده و ينثل عرش شرفه و يصحر
فى بادية الوحشية كسائر انواع الحيوان ليقضى فيها أجلاً قصيراً مفعما
بضروب من الشقاء محاطاً بانواع من المخاوف محشواً باخلاط من الاوجال
والاهوال . فان المبدأ الحقيقى لمزايا الانسان انما هو حب الاختصاص
والرغبة فى الامتياز فهما الحاملان على المنافسة السائقات الى المباراة والمسابقة
فلو سلبهما افراد الانسان وقفت النفوس عن الحركة الى معالى الامور
واغمضت العقول عن كشف اسرار الكائنات واكتناه حقائق الموجودات
وكان الانسان فى معيشته على مثال البهائم البرية ان أمكن له ذلك
وهيهات هيهات . . . .

مطلب

فى مسالك النيشريين فى طلب غاياتهم

سلكوا المخالج من الطرق لبث أوهامهم الفاسدة . فكانوا إذا سكنوا الى جانب أمن جهروا بمقاصدهم بصريح المقال . واذا ازعجتهم سطوة العدل اخذوا طريق الرمز والاشارة وكنوا عما يقصدون ولوحوا الى ما يطلبون ومشوا بين الناس مشية التدليس

وتارة كانوا يحملون على اركان القصر المسدس ليصدعوها بجملتها فى آن واحد واخرى كانوا يعمدوا الى بعضها اذا رأوا قوة المانع دون سائرها فيجعلون ما قصدوا منها مرمى انظارهم ويكدحون لهدمه بما استطاعوا من حول وقوة . وقد تلجئهم الضرورة الى البعد عن اركان الستة بأسرها فلا يأتون بما يمسها مباشرة ولكنهم يدأبون لابطال لوازمها او ملزوماتها ليعود ذلك بابطالها . وقد يكتفون بانكار الصانع جل شأنه وجحد عقائد الثواب والعقاب ويجهدون لافساد عقائد المؤمنين علماً منهم بان فساد هاتين العقيدتين ﴿الاعتقاد بالله والاعتقاد بالثواب والعقاب﴾ لا محالة يفضى الى مقاصدهم ويؤدى الى نتيجة افكارهم . وكثيراً ما سكتوا عن ذكر المبادى وسقطوا على ذات المقصد وهو الاباحة والاشتراك واخذوا فى تحسينه وتزيينه واستمالة النفوس اليه . وقد يزيدون على الدعوة الاقناعية بأى وجوهها عملا جاهلياً تانف منه الطباع وتاباه شرائع الانسانية ذلك ان ياخذوا معارضيهم بالغدر والاغتيال فكثيراً ما فتكوا بالآلاف من الارواح البريئة واراقوا سيولا من الدماء الشريفة بطرق من الحيل وضروب من الختل

مطلب

فى ضرر مذاهب النيشريين حتى بعقول من لا ياخذ بها اذا خالطهم

متى ظهر النيشريون فى أمة تفذت وساوسهم فى صدور الاشرار من تلك الامة واستهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمهم الا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من اى وجه كان لموافقة هذه الآراء الفاسدة لاهوائهم الخبيثة فيميلون معهم الى ترويج المشرب النيشرى واذاعته بين العامة غير ناظرين الى ما يكون من أثره . ومن الناس من لا يساهمهم فى آرائهم ولا يضرب فى طرقهم الا انه لا يسلم من مضارها ومفاسدها فان الوهن يلم باركان عقائده والفساد يسرى لاخلاقه من حيث لا يشعر حيث ان أغلب الناس مقلدون فى عقائدهم منقادون للعادة فى اخلاقهم واقل التشكيك وأدنى الشبهة يكفى علة لزعزعة قواعد التقليد وضعضعة قوائم العادة . وان هؤلاء النيشريين بما يقذفون بين الناس من اباطيلهم يبذرون فى النفوس بزور المفاسد فلا تلبث ان تنمو فى تراب الغفلة فتكون ضريعاً وزقوما

ولهذا قد يعم الفساد افراد الامة التى تظهر فيها هذه الطائفة وكل لا يدرى من اى باب دمر الفساد على قلبه فتشيع بينهم الخيانة والغدر والكذب والنفاق ويهتكون حجاب الحياء وتصدر عنهم شنائع تنكرها الفطرة البشرية يأتون مايأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرج وكل منهم وان كان يدعى بلسانه انه مؤمن بيوم الجزاء وفى نفسه ان ذلك اعتقاده واعتقاد آبائه الاان عمله عمل من يعتقد أن لا حياء بعد هذه الحياة لسريان عقائد

النيشريين الى قلبه وهو فى غفلة عن نفسه فلهذا تغلب عليهم الاثرة وهو افراط الشخص فى حبه لنفسه الى حد لو عرض فى طريق منفعته مضرة كل العالم لطلب تلك المنفعة وان حاق الضرر بمن سواه . ومن لوازم هذه الصفة ان صاحبها يؤثر منفعته الخاصة على المنافع العامة و يبيع جنسه وأمته بابخس الاثمان بل لا يزال به الحرص على هذه الحياة الدنيئة يبعث فيه الخوف و يكمن فيه الجبن حتى يسقط به فى هاوية الذل و يكتفى من الحياة بمدها وان كانت مكتنفة بالذلة محاطة بالمسكنة مبطنة بالعبودية فاذا وصلت الحال فى أمة الى أن تكون آحادها على هذه الصفات تقطعت فيها روابط الالتئام وانعدمت وحدتها الجنسية وفقدت قوتها الحافظة وهوت عروش مجدها وهجرت الوجود كما هجرها

مطلب

فى بيان الامم التى خنعت للذل وضرعت للضيم بعد العزة والشرف بما أفسدفيهم النيشريون ﴿ الدهريون ﴾

شعب ﴿ الكريك ﴾ أى اليونانيون كانوا قوما قليلى العدد و بما ألهموا و ورثوا من العقائد الثلاث خصوصا عقيدة ان أمتهم أشرف الامم و بما أودعوا من الصفات الثلاث خصوصا صفة الانفة والاباء وهى عين الحياة ثبتوا أحقابا فى مقاومة الامة الفارسية وهى تلك الامة العظيمة التى كانت تمتد من نواحى كشغر الى ضواحى استنبول ذلك فوق ما بلغوه من الدرجات العالية فى العلوم الرفيعة وقد حملهم الخوف من الذل والانفة من العبودية على الثبات فى مواقف الابطال بل رسخ بهم ذلك ولا رسوخ

الجبال حذراً من الوقوع فيما لا يليق بارباب الشرف وابناء المجد حتى آل بهم الامر أن تغلبوا على تلك الدولة العظيمة ﴿دولة فارس﴾ وهدموا أركانها ومدوا أيديهم الى الهند . وكانت صفة الامانة قد بلغت من نفوسهم الى حيث كانوا يرجحون الموت على الخيانة . كما تراه فى قصة ﴿ تمستوكليس ﴾ وهو قائد يونانى نبذه أبناء جلدته وطردوه وأرصدوا له القتل فاضطر للفرار من أيديهم والتجأ الى ﴿ ارتكزيكسيس ﴾ ملك فارس فلما كانت حرب بين فارس واليونان أمره ارتكزيكسيس أن يتولى قيادة جيش لحرب اليونان فأبى أن يحارب أمته وان كانت طردته فلما ألح عليه الملك الفارسى ولم يجد محيصا تناول السم ومات أنفة من خيانة بلاده . راجع تاريخ اليونان .

ظهر ابيقور الدهرى واتباعه الدهريون فى بلاد اليونان متسمين بسيما الحكماء وانكروا الالوهية ﴿ وانكارها أشد المنكر ومنبع كل وبال وشر كما يأتى بيانه ﴾ ثم قالوا ما بال الانسان معجب بنفسه مغرور بشأنه يظن ان الكون العظيم انما خلق خدمة لوجوده الناقص و يزعم انه أشرف المخلوقات وانه العلة الغائية لجميع المكونات . ما بال هذا الانسان قاده الحرص بل الجنون والخرق الى اعتقاد ان له عوالم نورانية ومعاهد قدسية وحياة أبدية ينقل اليها بعد الرحلة من هذه الدنيا و يتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ولذة لا يخالطها كدر . ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف مخالفا نظام الطبيعة العادل . وسد فى وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية مع انه لا يمتاز عن سائر

الحيوانات بمزية من المزايا فى شان من الشؤن بل هو أدنى أو أسفل من جميعها فى جبلته وأنقص من كلها فى فطرته وما يفتخر به من الصنائع فانما أخـذه بالتقليد عن سائر الحيوانات فالنسج مثلا نقله عن العنكبوت والبناء استن فيه بسنة النحل ورفع القصور وانشاء الصوامع اخذ فيه مأخذ النمل الابيض وادخار الاقوات حذا فيه حذو جنس النمل وتعلم الموسيقى من البلبل وعلى ذلك بقية الصنائع . فان كان هذا شانه من النقص فليس من اللائق به ان يقذف بنفسه فى ورطات المتاعب والمشاق عبثاً ومن الجهل ان يغتر بهذه الحياة التى لا تمتاز عن حياة سائر الحيوانات بل ولا جميع النباتات وليس وراءها حياة اخرى فى عالم آخر بل أجدر به أن يلقى ثقل التكاليف عن عاتقه ويقضى حق الطبيعة البدنية من حظ اللذة ومتى سنح له عارض رغيبة حيوانية وجب عليه تناوله من اى وجوهه وعليه أن لا ينقاد الى ما تخيله له أوهام الحلال والحرام واللائق وغير اللائق ﴿لبئس ما سولت لهم انفسهم نعوذ بالله﴾ فتلك امور وضعية ﴿فى زعمهم﴾ تقيد بها الناس جهلا فلا ينبغى لابن الطبيعة ان يجعل لها من نفسه محلا ولما امتنعت عليهم نفوس أهل الحياء من الامة فلم تاخذ منها وساوسهم وجدوا تلك الصفة الكريمة سدا دون طلبتهم فانصبوا عليها يقصدون محوها من الانفس واعلنوا أن الحياء ضعف فى النفس على ما تقدم وزعموا ان الواجب على طالب الكمال ان يكسر مقاطر العادات (جمع مقطرة وهى خشبة فيها خروق بقدر ارجل المحبوسين) ويحمل نفسه على ارتكاب ما يستنكره الناس حتى يعود من السهل عليه ان يأتى كل قبيح بدون انفعال نفسى ولا يجد ادنى خجل فى

المجاهرة باية هجينة كانت

ثم تقدم الابيقوريون الى العمل بما يرشدون اليه فهتكوا حجاب الحياء ومزقوا استاره وأراقوا ماء الوجه الانسانى المكرم فاستحلوا التناول من مال الناس بغير اذن وكانوا متى رأوا مائدة اقتحموا عليها سواء طلبوا اليها أم لم يطلبوا حتى سماهم القوم بالكلاب فاذا رأوهم رموهم بالعظام المعروقة ومع ذلك لم تتنازل هذه الكلاب الانسية عن دعوى الحكمة ولم يردعها رادع الزجر عن شىء من شرورها وكانت تنبح فى الاسواق منادية المال مشاع بين الكل وتهجم على الناس من كل ناحية وهذا سبب شهرتهم بالكلبيين

فلما ضربت افكار النيشريين ﴿ الدهريين ﴾ فى نفوس اليونان بسعى الابيقوريين ونشبت بعقولهم سقطت مداركهم الى حضيض البلادة وكسد سوق العلم والحكمة وتبدل شرف انفسهم بالذل واللؤم وتحولت اماناتهم الى الخيانة وانقلب الوقار والحياء قحة وتسفلا واستحالت شجاعتهم الى الجبن ومحبة جنسهم ووطنهم الى المحبة الشخصية وبالجملة فقد تهدمت عليهم الاركان الستة التى كان يقوم عليها بيت سعادتهم وانتقض اساس انسانيتهم ثم انتهى امرهم بوقوعهم أسرى فى ايدى الرومانيين ﴿ جنس اللاتين ﴾ وكبلوا فى قيود العبودية زمناً طويلا بعد ما كانوا يعدون حكاماً فى الارض بلا معارض

﴿ فى الامة الفارسية ﴾ بلغت فيها الاصول الستة أعلى مكانة من الكمال أحقاباً طويلة فكانت لها أصول السعادة وموارد النعيم حتى بلغ اعتقاد الفارسيين من الشرف لانفسهم الى حد أنهم كانوا يزعمون ان السعداء من غيرهم الامم الداخلون فى عهدهم المستظلون بحمايتهم او المجاورون لمما لكهم

كان الصدق والامانة أول التعليم الديني عندهم و وصلوا فى التحرج من الكذب الى حيث كانوا اذا بلغت الحاجة مبلغها من احدهم لا يتقدم للاقتراض خوف أن يضطره الدين الى الكذب فى مواعيد وفائه فارتفعوا بهذه الخصال الى درجة من العزة و بسطة الملك يلزم لبيانها كتاب مثل الشاهنامه

قال المؤرخ الفرنساوى فرانسيس لونورمان ان مملكة فارس على عهد دارا الاكبر كانت احدى وعشرين ايالة . واحدة منها تحتوى مصر وساحل القلزم ﴿البحر الاحمر﴾ و بلوجستان والسند . وكانوا اذا ألم الضعف بسلطانهم فى زمن من الازمان بعثتهم تلك العقائد القويمة والصفات الكريمة على تلافى امرهم فخلصوا مما ألم بهم فى قليل زمن ورجعوا الى مكانتهم الاولى ومجدهم الأعلى

ظهر فيهم ﴿مزدك﴾ النيشرى ﴿الدهرى﴾ على عهد ﴿قباد﴾ وانتحل لنفسه رافع الجور ودافع الظلم و بنزغة من نزغاته قلع اصول السعادة من ارض الفارسيين ونسفها فى الهواء و بددها فى الاجواء فانه بدأ تعليمه بقوله . جميع القوانين والحدود والآداب التى وضعت بين الناس قاضية بالجور مقررة للظلم وكلها مبنى على الباطل وان الشريعة النيشرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن وقد بقيت مصونة فى حرزها عند الحيوانات والبهائم . اى عقل وأى فهم يصل الى سر ماشرعته النيشر ﴿الطبيعة﴾ وأى ادراك يحيط بمثل ما احاطت به وقد جعلت الطبيعة حق المأكل والمشرب والبضاع مشاعاً بين الآكلين والشاربين والمباضعين بدون ادنى تخصيص . فما الحامل للانسان على حرمان نفسه من بضاع بنته وأمه وأخته

ثم تركهن لغيره يتمتع بهن انقياداً لما يخيله له الوهم مما يسميه شريعة وادباً .
وأى حق يستند اليه من يدعى ملكية خاصة فى مال يتصرف فيه دون سواه
مع انه شائع بينه و بين غيره . وأى وجه لمن يحجر على امرأة دخلت فى عقده
و يحظر على الناس نيلها وقد خلق الذكر للانثى والانثى للذكر وماذا
يوجد من العدل فى قانون يحكم بان المال الشائع اذا تناولته يد مغتصب
بما يسمونه بيعا وشراء أوارثا يكون مختصا بذلك المغتصب ثم يحكم على الفقير
المحروم اذا احتال لاخذ شيء من حقه والتمتع به بانه خائن اوغاصب
فان كان هذا شان تلك القوانين الجائرة فعلى الانسان ان يفك اغلالها
من عنقه و يطرح كل قيد عقدته القوانين والشرائع والآداب التى لا واضع
لها سوى العقل الانسانى الناقص وليرجع الى سنة الطبيعة المقدسة و يقضى
حق شهوته من اللذائذ التى اباحتها له بأى الوجوه ومن اية الطرق و يأخذ
فى ذلك مأخذ البهائم وعليه ان يقاوم الغاصبين المتحكمين فى الحقوق قسرا
﴿اى المالكين للأموال والابضاع﴾ فيخرجهم عن سوء فعالهم من
الغصب والجور ﴿اى حق التملك﴾

فلما ذاعت هذه النزغات الخبيثة بين الامة الفارسية تهتك الحياء وفشا
الغدر والخيانة وغلبت الدناءة والنذالة واستولى حكم الصفات البهيمية على
نفوسهم وفسدت اخلاقهم ورذلت طباعهم

نعم ان انوشر وان قتل مزدك وجماعة من شيعته ولكنه لم يستطع محو
هذه الاوهام الفاسدة بعدما علقت بالعقول والتبست نفايتها بالافكار فكان
علة فى ضعفهم حتى اذا جاءهم العرب لم تكن الا حملة واحدة فانهزموا مع ان
الروم وهم اقران الفارسيين ثبتوا فى مجالدة العرب ومقاتلتهم ازمانا طويلة

مطلب

﴿ فى الامة الاسـلامية ﴾

جاءتها الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة ومكنت فى نفوسها تلك الصفات الفاضلة وشمل ذلك آحادهم ورسخت بينهم تلك الاصول الستة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤس الامم من جبال الالب الى جدار الصين فى قرن واحد وحثوا تراب المذلة على رؤس الاكاسرة والقياصرة مع انهم لم يكونوا الاشرذمة قليلة العدد نزرة العدد ولم ينالوا هذه البسطة فى الملك والسطوة فى السلطان الا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة . هذا الى ماجذبه مغناطيس فضائلهم من مائة مليون دخلوا فى دينهم فى مدة قرن واحد من امم مختلفة مع انهم كانوا يخيرونهم بين الاسلام وشىء زهيد من الجزية لا يثقل على النفوس أداؤه . هكذا كان حال هذه الامة الشريفة من العزة ومنعة السلطان

فلما كان القرن الرابع بعد الهجرة ظهر النيشريون (الطبيعيون) بمصر تحت اسم الباطنية وخزنة الاسرار الالهية وانبثت دعاتهم فى سائر البلاد الاسلامية خصوصا بلاد ايران . علم هولاء الدهريون ان نور الشريعة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة واتم التسليم قد أنار قلوب المسلمين كافة وان علماء الدين الحنيفى قائمون على حراسة عقائد المسلمين واخلاقهم بكمال علم وسعة فضل ودقة نظر فلهذا ذهب اولئك المفسدون مذاهب التدليس فى نشر آرائهم وبنوا تعليمهم على أمور أولا إثارة الشك فى القلوب حتى

يتفكك عقد الايمان وثانيا الاقبال على الشاك وهو فى حيرته ليمنوه بالنجاة منها وهدايته الى اليقين الثابت فاذا انقاد لهم أخذوا منه مواثيقهم ثم أوصلوه الى مرشدهم الكامل وثالثا اوعزوا الى دعاتهم ان يلبسوا الروساء الدين الاسلامى لباس الخدعة وجعلوا من شروط الداعى ان يكون بارعا فى التشكيك ماهراً فى التلبيس مقتدراً على إشراب القلوب مطالبه . فاذا سقط الساقط من المغرورين فى حبالة مرشدهم الكامل فأول ما يلقنه المرشد قوله . ان الاعمال الشرعية الظاهرة ﴿كالصلاة والصيام ونحوهما﴾ انما فرضت على المحجوبين دون الوصول الى الحق والحق هو المرشد الكامل فحيث انك وصلت الى الحق فاليك ان تلقى عن عاتقك ثقل الاعمال البدنية فاذا مضى عليه زمن فى عهدهم صرحوا له بان جميع الاعمال الباطنة والظاهرة وكذلك سائر الحدود والاعتقادات انما لزمت فرائضها بالناقصين المصابين بامراض من ضعف النفوس ونقص العقول اما وقد صرت كاملا فلك الاختيار فى مجاوزة كل حد مضروب والخروج من اكنان التكاليف الى باحات الاباحة الواسعة . ما الحلال وما الحرام . ما الامانة وما الخيانة . ما الصدق وما الكذب . ما هى الفضائل وما هى الرذائل . الفاظ وضعت لمعان مخيلة وما لها من حقيقة واقعية ﴿فى زعم المرشد﴾

فاذا قرر المرشد اصول الاباحة فى نفوس اتباعه التمس لهم سبيلا لانكار الالوهية وتقرير مذهب النيشرية ﴿الدهريين﴾ فأتى اليهم من باب التنزيه فقال الله منزه عن مشابهة المخلوقات ولو كان موجوداً لاشبه الموجودات ولو كان معدوماً لاشبه المعدومات فهو لا موجود ولا معدوم ﴿يعنى انه يقر بالاسم وينكر المسمى﴾ مع ان شبهته هذه سفسطة بديهية

البطلان فان الله منزه عن مشاركة الممكنات فى خصائص الامكان اما فى مطلق الوجود فلا مانع من ان يتفق اطلاق الوصف عليها وعليه وان كان وجوده واجباً ووجودها ممكناً

وقد جدت طائفة الباطنية فى إفساد عقائد المسلمين زماناً غير قصير أخذا بالحيلة ونفاذاً بالخدعة حتى انكشف امرهم لعلماء الدين ورؤساء المسلمين فانتصبوا الدرء مفاسدهم وتحويل الناس عن ضلالاتهم فلما رأوا كثرة معارضيهم شحذوا اشفار الغيلة ففتكوا بكثير من الصالحين واراقوا دماء جم غفير من علماء الامة الاسلامية وامراء الملة الحنيفية

و بعض اولئك المفسدين عندما امكنته الفرصة ووجد من نفسه ريح القوة اظهر مقاصده على منبر ﴿ألموت﴾ ﴿قلعة فى خراسان﴾ وجهر بآرائه الخبيثة فقال . اذا قامت القيامة حطت التكاليف عن الاعناق ورفعت الاحكام الشرعية سواء كانت متعلقة بالاعمال البدنية الظاهرة او الملكات النفسية الباطنة والقيامة عبارة عن قيام القائم الحق وانا القائم الحق فليعمل عامل ما اراد فلا حرج بعد اليوم اذا رفعت التكاليف وخلصت منها الذمم ﴿أى أغلقت ابواب الانسانية وفتحت ابواب البهيمية﴾

وبالجملة فهولاء الدهريون من اهل التأويل اى ﴿الناتورا ليسم﴾ من الاجيال السابقة الاسلامية عملوا على تغيير الاوضاع الالهية بفنون من الحيل ودعوا كل كمال انسانى نقصا وكل فضيلة رذيلة وخيلوا للناس صدق ما يزعمون ثم تطالوا على جانب الالوهية فحلوا عقود الايمان بها بالسفسطة التى سموها تنزيها ومحوا هذا الاعتقاد الشريف من لوح القلوب وفى محوه محو سعادة الانسان فى حياته وسقوطه فى هاوية الياس والشقاء

فافسدوا أخلاق الملة الاسلامية شرقا وغربا وزعزعوا اركان عقائدها وساعدهم مد الزمان على تلويث النفوس بالاخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة التى كان عليها ابناء هذه الملة الشريفة حتى تبدلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور وجرأتهم بالخوف وصدقهم بالكذب واماناتهم بالخيانة ووقع المسخ فى هممهم فبعد أن كان مرماها مصالح الملة عامة صارت قاصرة على المنافع الشخصية الخاصة وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية . وكان من عاقبة ذلك ان جماعة من قزم الافرنج صدعوا أطراف البلاد السورية وسفكوا فيها دماء آلاف من اهاليها الابرياء وخربوا ما امكنهم ان يخربوا وثبتوا بها نحو مائتى سنة والمسلمون فى عجز عن مدافعتهم . مع ان الافرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين وطرو الفساد على اخلاقهم فى قلق لا يستقر لهم أمن على حياتهم وهم فى بلادهم خوفا من عادية المسلمين وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع كنكيزخان واخترقوا بلاد المسلمين وهدموا كثيراً من المدن المحمدية واهدروا دماء ملايين من الناس ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم مع ان مجال خيولهم فى بدء الاسلام على قلة عددهم كان ينتهى الى اسوار الصين

وما نزل بالمسلمين شيء من هذه المذلات والأهانات ولا رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء فى ارواحهم الا بعدما كلت بصائرهم وتغلت نياتهم ومازج الدغل قلوبهم وخزيت اماناتهم وفشا الغش والادهان بينهم ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمة ولا ينظر الى ملة فاصبحوا بقناة خوارة بعد ان كانت قناتهم لا تلين لغامز الا ان بقية من تلك الاخلاق المحمدية كانت لم تزل راسخة فى نفوس كثير منهم كامنة فى طى ضمائرهم فهى التى

انهضتهم من كبوتهم وحملتهم على الجد فى كشف السطوة الغربية عن بلادهم فاجلوا الامم الافرنجية بعد مئتين من السنين وخلصوا البلاد السورية من ايديهم وطوقوا الجنكيز بين بطوق الاسلام والبسوهم تيجان شرفه ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف واعادة ما كان لهم من الشوكة الى المقام الاول فان ما كان من شوكة وقوة انما هو اثر العقائد الحقة والصفات المحمودة فلما خالط الفساد هذه وتلك تعسر عود السهم الى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون الى ان بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب والاليق ان يقال ان ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية «الدهرية» فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس اهل الدين الاسلامى

وليس بخاف ان فئة ظهرت فى الايام الاخيرة ببعض البلاد الشرقية واراقت دماء غزيرة وفتكت بارواح عزيزة تحت اسم لا يبعد عن اسماء من تقدمها لمثل مشربها وانما التقطت شيئا من نفايات ماترك دهريوا ألموت وطبيعيوا كردكوه . وتعليمها نموذج تعليم اولئك الباطنيين فعلينا ان ننتظر ما يكون من آثار بدعها فى الامة التى ظهرت بها

«الشعب الفرنساوى» شعب كان قد تفرد بين الشعوب الاروبية باحراز النصيب الاوفر من الاصول الستة فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة فى قطعة اروبا بعد الرومانيين وصار بذلك مشرقا للتمدن فى سائر الممالك الغربية وبما احرز الفرنساويون من تلك الاصول كانت لهم الكلمة النافذة فى دول الغرب الى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحى حتى ظهر فيهم (وولتير) و (روسو) يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام باثارة الافكار

وهداية العقول فنبشا قبر أبيقور الكلبي واحييا ما بلى من عظام الناتور اليسم (الدهريين) ونبذا كل تكليف ديني وغرسا بزور الاباحة والاشتراك وزعما ان الآداب الالهية جمليات خرافية كما زعما ان الاديان مخترعات احدثها نقص العقل الانساني وجهر كلاهما بانكار الالوهية ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء ﴿ برأهم الله مما قالا ﴾ وكثيرا ما الف وولتير من الكتب فى تخطئه الانبياء والسخرية بهم والقدح فى انسابهم وعيب ماجاؤا به فاخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها ايديهم وبعد ان اغلقوا أبوابها فتحوا على انفسهم ابواب الشريعة المقدسة ﴿فى زعمهم﴾ شريعة الطبيعة. وزاد بهم الهوس فى بعض أيامهم حتى حمل لفيفا من عامتهم ان يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ويحملوها الى محراب الكنيسة ففعلوا ونادى زعيم القوم . ايها الناس لا ياخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ولا لماع البرق ولا تظنوا شيئا من ذلك تهديداً لكم من آله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته كلا فهذه كلها آثار الطبيعة ﴿الناتور﴾ ولا مؤثر فى الوجود سوى ﴿ الناتور ﴾ خلوا عن اعناقكم قيود الاوهام ولا تقيموا لانفسكم إلها من خواطر ظنونكم فان كانت العبادة من رغائب شهواتكم فها هى (مدموازيل) اى العذراء قائمة فى المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها ان شئتم

والاضاليل التى بثها هذان الدهريان ﴿وولتير وروسو﴾ هى التى اضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة ثم فرقت بعد ذلك اهواء الامة وأفسدت أخلاق الكثير من ابنائها فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب واوغلوا فى سبل الخلاف زمنا يتبعه زمن حتى تباين صدعهم وذهب

كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية وليس بينها و بين غايات سائر الفرق مناسبة وانحصر سعى كل قبيل فى التماس ما يوانى لذته و يوافق شهوته واعرضوا عن منافعهـم العامة واعقب ذلك عروض الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا

نعم ان نابليون الاول بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب استدرا كا لشانه لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل فاستمر الاختلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم . هذا الذى جر الفرنساويين للسقوط فى عار الهزيمة بين يدى الجرمانيين وجلب اليهم من الخسارة ما تعسر عليهم تعويضه فى سنين طويلة . هذه الاباطيل الدهرية قام عليها مذهب الكمون اى الاشتراكيين وانما هذا المذهب بين الفرنساويين ولم تكن مضار الآخذين به ومفاسدهم فى البلاد الفرنساوية اقل من مضار الجرمانيين ﴿راجع تاريخ الحرب بين فرنسا والمانيا﴾ ولو لم يتـدارك الامر أرباب العقائد النافعة والسجايا الحسنة لنسف الاشتراكيون كل عمران على اديم فرانسا ومحوا مجد الامة تنفيذاً لاهوائهم وجلبا لرغائبهم

﴿الامة العثمانيـة﴾ انما رقت حالتها فى الازمنة المتاخرة بما دب فى نفوس بعض عظمائها وامرائها من وساوس الدهريين فان القواد الذين اجترحوا اسم الخيانة فى الحرب الاخيرة بينها و بين الروسية كانوا يذهبون مذهب النيشريين ﴿الدهريين﴾ و بذلك كانوا يعدون انفسهم من ارباب الافكار الجديدة ﴿ابناء العصر الجديد﴾

زعموا بما كسبوا من أوهام الدهريين أن الانسان حيوان كالحيوانات لا يختلف عنها فى أحكامها وهذه الاخلاق والسجايا التى عدوها فضائل

تخالف بجميعها سنن الطبيعة المطلقة ﴿الناتور﴾ و إنما وضعها تحكم العقل وزادها تطرف الفكر • فعلى من بصر بالحقيقة (على زعم اولئك المارقين) أن يستنهج كل طريق لتحصيل شهواته واستيفاء لذاته ولا يأخذ نفسه بالحرمان من ملاذه وقوفا عنـد خرافات القيود الواهنـة والموضوعات الانسانية الواهية وحيث ان الفناء حتم على الاحياء فما هو الشرف والحياء وماهى الامانة والصدق وأى شىء هو العفة والاستقامة • ولهذا خان اولئك الامراء ملتهم مع ما كان لهم من الرتب الجليلة و رضوا بالدنية واستناموا الى الخسة ونسفوا بيت الشرف العثمانى فى تلك الحرب وجلبوا المذلة على شعوبهم بعرض من الحطام قليل

مطلب

فى السوسيا ليست ﴿الاجتماعيون﴾ النهيليست ﴿العدميون﴾ الكمونيست ﴿الاشترا كيون﴾

هذه الطوائف الثلاثة تتفق فى سلوك هذه الطريقة ﴿الدهرية﴾ وزينوا ظواهرهم بدعوى انهم سند الضعفاء والطالبون بحقوق المساكين والفقراء وكل طائفة منها وان لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الاخرى الا ان غاية مايطلبون انما هو رفع الامتيازات الانسانية كافة واباحة الكل للكل و إشراك الكل فى الكل • وكم سفكوا من دماء وكم هدموا من بناء وكم خربوا من عمران وكم أثاروا من فتن وكم انهروا من فساد • كل ذلك سعياً فى الوصول الى هذه المطالب الخبيثة • وجميعهم على اتفاق فى ان جميع المشتهيات الموجودة على سطح الارض منحة من الطبيعة وفيض من

فيوضها والأحياء فى التمتع بها سواء واختصاص فرد من الانسان بشيء منها دون سائر الافراد بدعة فى شرع الطبيعة سيئة يجب محوها والاراحة منها . ومن مزاعمهم ان الدين والملك عقبتان عظيمتان وسدان منيعان يعترضان بين ابناء الطبيعة ونشر شريعتها المقدسة ﴿الاباحة والاشتراك﴾ وليس من مانع اشد منهما فاذن من الواجب على طلاب الحق الطبيعي ان ينقضوا هذين الاساسين ويبيدوا الملوك ورؤساء الاديان

ثم يعمدوا الى الملاك واهل السعة فى الرزق فان دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص فتلك والا أخذ باعناقهم قتلا وبأكظامهم خنقا حتى يعتبر بهم من يكون من امثالهم فلا يلوون رؤسهم كبرا على الشريعة المقدسة ﴿شريعة الطبيعة﴾ ولا تزور أعناقهم عصيانا لاحكامها

نظر أبناء هذه الطوائف الثلاثة فى وجوه الوسائل لبث افكارهم والافضاء بما فى اوهامهم الى قلوب العامة فلم يجدوا وسيلة أنجح فى زرع بزور الفساد فى النفوس من وسيلة التعليم إما بانشاء المدارس تحت ستار نشر المعارف او بالدخول فى سلك المعلمين فى مدارس غيرهم ليقرروا أصولهم فى اذهان الاطفال وهم فى طور السذاجة فتنتقش بها مداركهم بالتدريج . فمن أولئك الدهريين من همه بناء المدارس ودعوة الناس اليها ومنهم متفرقون فى بلاد أوربا يطلبون وظائف التعليم وينالون من ذلك طلبتهم وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة وبهذا كثرت احزابهم ونمت شيعتهم فى اقطار الممالك الاوربية خصوصاً مملكة الروسية . لا جرم ان هذه الطوائف اذا استفحل امرها وقوى ساعدها على المجاهرة باعمالها فقد تكون سبباً فى انقراض النوع البشرى كما تقدم ذكره أعاذنا الله من شر وراقوا لهم واعمالهم

مورمون

هذا النبي الاخير والرسول الممتاز بالبعثة من قبل الناتور (الطبيعة) نشأ فى انكلترا ثم هاجر منها الى اميركا واعلن ما التى اليه بالهام الطبيعة من ان النعمة العظمى ﴿يريد الاباحة والاشتراك﴾ إنما يؤتاها من كان مؤمناً بالطبيعة وليس لغيره من الكفرة بها حق التمتع بتلك النعمة واجتمع اليه عدد من ضعفة العقول فألف منهم جمعيتين احداهما من المؤمنين والاخرى من المؤمنات وقال لكل مؤمن حق التمتع بكل مؤمنة حتى كانت اذا سئلت إحدى المؤمنات . زوجة من أنت . تجيب انها زوجة جماعة المؤمنين واذا سئل احد ابنائهن . ابن من أنت . يجيب انهُ ابن الجمعية الا انهُ الى الآن لم يصمد لهيب فسادهم من هوة الويل (هوة جمعيتهم)

مطلب

﴿ فى دهريو الشرقيين ﴾

اما منكروا الالوهية أعنى النيشريين الذين ظهروا فى لباس المهذبين ولوّنوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية و زعموا انفسهم طلاب خير الامة فصاروا بذلك شركاء اللص و رفقاء القافلة ثم تجلوا فى أعين الاغبياء حملة الاعلام العلم والمعرفة و بسطوا للخيانة بساطا جديد وتولاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة غير تامة الافادة مسروقة من أوهام المبطلين وفتلوا سبالهم كبرا وعلوًّا ولقبوا انفسهم بالهادين والادلاء وهم فى اطباق جهل وارتاق غباوة و فى أهب من دنس الرذائل ومسوك من قذر الذمائم فاولئك قوم قوى فيهم الظن بان العقل وثمرته من المعرفة ينحصران فى تبين

وجوه الغدر وتعرف طرق الاختلاس . وإنني لفى خجل من ذكرهم يدافعني الحياء عن رواية سيرهم وحكاية اعمالهم فان مقاصدهم من الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم . يسعون فى اقتلاع اساس امتهم لشهوة بطونهم يحددون شفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بنى جنسهم لا يبتغون بذلك عوضاً سوى حشو معدهم وما اضيق مجال افكارهم . الى الآن لم يخط احدهم خطوة خارج كرشه ولم يعد واحد منهم رجله لا بعد من فرشه وليس فى وسع القلم ان يتحرك فى هذا المجال الضيق غير انه يمكن ان يقال انهم «بياجو» لغيرهم من اهل الضلالة «اى سيئو التقليد لهم» وما بقى من اوصافهم لا يخفى على فهم القارئين

مطلب
فى مضار انكار الالوهية

تبين مما اسلفناه ان طائفة النيشريين «الدهريين» كلما نجمت فى امة افسدت اخلاقها واوقعت الخلل فى عقولها وتخطفت قلوب آحادها بانواع من الحيل والوان من التلبيس حتى تصبح تلك الامة وقد وهى أساسها وتفطر بناؤها واغتالتها رذائل الاخلاق من الاثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات ولا يزال الفساد يتغلغل فى احشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود اوتضرب عليها الذلة ويخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية

إلا ان قبيلا من هذه الطائفة عملوا على اخفاء مقصدهم الاصلى وهو الاباحة والاشتراك واكتفوا فى ظاهر الامر بانكار الالوهية وجحود يوم

الدين يوم العرض والجزاء وقد يظن بعض ضعفة العقول ان فى ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية لهذا احببت ان أبين ان هذه النزغة وحدها كافية فى إفساد الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان المدنية وليس من ضروب الباطل ماهو أشد منها تأثيراً فى محو الفضائل وإثارة الخبائث والرذائل وليس من الممكن ان يجتمع لشخص واحد وهم الدهرى وفضيلة الامانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولية

ذلك ان كل فرد من نوع الانسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شهوات تميل به الى مشتهيات فشهواته تدفعه الى تحصيل مشتهياته ولا يستطيع تسكين هواه ولا كسر سورة نفسه الا بنيل مايمكنه من تلك المشتهيات كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل اليه من المطلوب ولم تحدد الطبيعة طريقاً معينة يسلكها الراغبون للوصول الى رغائبهم فسبيل حق وسبيل باطل . وسبيل الفتنة والفساد وسبيل الهدى والرشاد وسبيل سفك الدماء واغتصاب الحقوق وسبيل الاجمال والتعفف وكلها ميسر للطالب غير ممتنع على السالك.

فقصر النفوس على طريقة محدودة وتوقيف اهوائها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال فى آثارها واعمالها وارضاء كل ذى شهوة بحقه وكفه عن الاعتداء والاجحاف بحقوق غيره هذا كله انما يكون باحد أمور أربعة

مطلب

﴿فى الامور التى يمكن بها الزام النفس حدود العدل﴾

اما ان يحمل كل ذى حق آلة حرب فيخطر بسيفه ويعتقل رمحه ويرفع

ترسه ويقوم ليله ونهاره يقدم احدى رجليه ويوخر الاخرى دفاعاً عن حقه . واما شرف النفس كما يزعمه أرباب الاهواء . واما الحكومة . واما الاعتقاد بان لهذا العالم صانعاً قادراً محيط العلم نافذ الحكم وانه يوفى كل عامل جزاء عمله بمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ثواباً جزيلا اوعقاباً وبيلا فى حياة بعد هذه الحياة

﴿ الاول الدافعة الشخصية ﴾

اما الاول فبراز وضراب ونضال وقتال وجلاد تسيل به الاودية مهجاً وتخضل به الربى دماً وتتفانى به النفوس طلبا للحقوق أودفاعا عنها وتكون الدائرة للاقوياء على الضعفاء حتى اذا قوى الضعفاء يوماً ماثاروا على الاقوياء فلا يزال صاحب القوة يطحن الضعيف والاقران يسحق بعضهم بعضاً الى ان يعم جميعهم الفناء وينقرض النوع الانسانى من وجه البسيطة

﴿ الثانى شرف النفس ﴾

اما الثانى فتقدم الكلام فيه ببيان شرف النفس فهى صفة تنكب بصاحبها عن اتيان مايذم عند قبيلته وغشيان مايقبح فى انظار عشيرته ويقابلها خسة النفس وهى صفة لا يتأثر معها صاحبها من التشنيع ولا تنفعل نفسه من التقبيح فتلك الصفة اعنى شرف النفس ليست لها حقيقة معينة ولا هى فى حدود معروفة عند جميع الامم حتى يمكنهم بالمحافظة عليها ان يقفوا بالشهوات عند حد الاعتدال ألا ترى ان كثيراً من الامور يعد ارتكابه عند بعض الامم خسة ودناءة وهو بعينه عند بعض آخر شرف ورفعة يستتبع المدح والثناء على انه فى الحقيقة شر الشرور واعظم الفجور تتبين ذلك من حال سكان البادية واهل الجبال من القبائل المتبدية فانهم يعدون الغارة

والفتك بالارواح وانتهاب الاموال واسترقاق الاحرار من فعال المجد و بلوغ الغاية منها بلوغ الى نهاية الشرف وهذه الفعال بعينها يعدها سكان المدن واهل الحضارة لواحق الدناءة وعلائم خسة النفس وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خسة وخبثا و يحسبهما آخرون حكمة وعقلا

واذا امعنت النظر فى المسالة وجدت ان لكل كائن فى عالم الامكان علة غائية والعلة الغائية لاعمال الانسان انما هى نفسه فهو لا يطلب شرف النفس ولا يسعى للتجمل به الا طمعه فى توفير رزقه وتوسيع سبل معيشته وخوفه من ضيق مسالك العيش عليه فانه يعلم ان شرف النفس يرد الى صاحبه شوارد القلوب و يجعله مكان ثقتها و يظهره فى بهاء الصدق والامانة فيعظم الركون اليه وتتكثر اعوانه و فى ذلك توفر اسباب المعيشة واتساع طرقها بخلاف من تلتاث نفسه بالخسة فذلك مقذوف القلوب منبوذ الطباع لا ينبسط اليه النظر ولا يحوم عليه الخاطر فهو قليل الاعوان عديم الاخوان ومن كان هذا حاله سدت عليه أبواب الرزق واكتنفته غائلات الفاقة فيكون ميل الانسان الى شرف النفس ودرجته من القوة والضعف وتمكنه من نفسه وعدم تمكنه ومراتب اثره فى كبح الشهوات وردها عند تخوم العدالة انما هو على حسب أحوال الطبقات فى معائشهم بمعنى ان كل طبقة من الناس تطلب من تلك الصفة ما ينفعها فى معيشتها و يحفظها من طارقة السوء بل لا ترى كل طبقة ان شيئا يعد من الشرف الا تلك الصفة التى تحفظ بها المنزلة وتصان بها مواد المعيشة . ومازاد على ذلك فلا يعد فقدانه نقصا ولا الخلو عنه انحطاطا فلا تسعى لاستحصاله وان عده قوم آخرون من جوهر الشرف ومن مقومات الكمال وان لنا عبرة فى أغلب السلاطين والامراء فانهم مع أخذهم

بمذاهب الشرف لا يبالون بنقض العهود وخفر الذمم خصوصا مع من دونهم في السلطان ومن لا يضارعهم في القوة ولا يأنفون الظلم ولا ينكرون الغدر ولا يتجافون مذمة من تلك المذام ولا يعدون شيئا منها خسة ولا يحسبونه من غاشيات الدناءة مع أن واحدا من هذه الفعال لو صدر من آحاد الرعية بعضهم مع بعض لعد من دنيات الفعال ورمى فاعله بخسة النفس وسقوطها عن مراتب الشرف ومن هذا الوجه كان الخلل يعرض لنظام المعيشة حيث ان سائر الطبقات لا ينظرون الى ما يصدر عن أمرائهم ورؤسائهم نظرهم الى ما يصدر عن آحادهم فهم يذهبون مذاهب التاويل في أعمال الرؤساء والكبراء . وهكذا حال الطبقات العالية بالنسبة لما دونها طبقة بعد طبقة أي ان كل طبقة عالية تزعم نفسها مصونة من المثالب محفوظة من الشنائع ومنزلتها ممن دونها تحمل الادنين على الاقرار لها بما تزعم فلو كان قوام النظام في العالم الانساني بشرف النفس لانطلقت أيدي العدوان من الطبقات الرفيعة فيما دونها وتفتحت أبواب الشر والفساد في وجه هذا النوع الضعيف

هذا كله اذا فرضنا وقوف كل طالب لشرف النفس عند ما يظنه شرفا لا يخالفه الى سواه لا خفية ولا جهرة لكن حيث كان الباعث على التجمل بهذا الوصف انما هو الرغبة في تحسين المعيشة والفرار من مضا نكها فقلما يستوي ظاهر الانسان و باطنه في هذه الصفة فهو في معلنات أموره يسلك سبل الشرف لينال حظه من ميل القلوب اليه ثم لا يمنعه ذلك من غشيان الخيانة الخفية وغمس يده في قذر العدوان من وراء حجاب التستر و بسط كفه لتناول الرشوة في زوايا المحاكم لان طالب خفض العيش يعرف ان هذه الخبائث الخفية تصل به الى مقصده من السعة على أمن من الاشتهار بصفة

الدناءة وذلك معروف من أحوال المداعين الظاهرين فى ثياب الشرف والعفة والله أعلم ماذا يسترون تحت ذيولهم وما يضمرون دون جيوبهم وما يحربون من الاموال فى زوايا بيوتهم

فاذن لا يليق بذى عقل أن يجعل شرف النفس ميزانا للعدل ولا مكان للظن بان هذه الصفة تقف بكل عند حده وترضيه بحقه وتكف النفوس عن غصب الحقوق وتدفعها عن الجور وتمنعها عن الحيف ماظهر منه وما بطن

فان قال قائل ان حب المحمدة مما أشربته قلوب البشر وهو باعث على الاستمساك بشرف النفس لما يستعقبه من حسن الحمد فكل ذى فطرة انسانية يسعى لكسب المحمدة لا بد له أن يطلب الغاية من خلة الشرف النفسى وينزه نفسه عن جميع الرذائل ويرفعها عن معاطاة الدنايا والخسائس ويبتعد بها عن مخالج الحيف والعدوان فنقول فى جوابه أولا اذا تعارض موجب المدح والثناء ومقتضى الشهوات البدنية فقليل من الناس من يختار الاول على الثانى والجمهور الاغلب مغلوب للشهوة ماسور للذة والنظر فى طبقات الناس وأحوالهم على اختلافهم يثبت لنا ذلك وثانيا ان صاغة المدائح ونساج المحامد صنف من الناس أشباه انسان وأسناخ حيوان . أولئك المعروفون بالمؤرخين والشعراء الكاذبين ولا باعث لهؤلاء على نثر المحامد ونظم القصائد الا نضارة الثروة فى الممدوحين ورونق الجاه والجلالة فى المحمودين من غير نظر الى مناشىء الجاه ولا موارد الثروة فمناط الحمد احدى البسطتين وان حفت بالمظالم وأحيطت باللوائم ولهذا تنبعث نفوس كثير من الناس للوصول الى هذه المظاهر فيطلبون الغنى والثروة والجاه والعظمة ولو كان ذلك من وجوه الغدر وطرق الحيف والظلم لينالوا بذلك حظهم اللذائذ البدنية كما

يصيبون سهمهم من المدائح على ألسنة أولئك المدلسين وليس بكثير فى الناس طلاب المحمدة الحقة اللاقطون لدرر المدائح من باحات الفضائل وساحات المكارم المرتادون للحمد بين حدود الحق وأولئك الحافظون لشرف النفس وقليل ماهم . فلم تبق ريبة فى قصور هذه الخلة أعنى شرف النفس عن الكفاية فى تعديل الاخلاق وتحديد الشهوات وحجب العدوان وحفظ النظام الانسانى اللهم الا أن تكون مستندة الى عقيدة فى دين وتكون حقيقتها محدودة فى ذلك الدين فعند ذلك تكون دعامة لبناء الشركة الانسانية ومعقد الروابط الالفة وسببا لانتظام سلسلة المعاملات لاستنادها على الدين لا بنفسها مجردة كما مرت الاشارة اليه فى صفة الحياء.

﴿ الثالث الحكومة ﴾

وأما الثالث (الحكومة) فليس يخاف ان قوة الحكومة انما تاتى على كف العدوان الظاهر ورفع الظلم البين أما الاختلاس والزور المموه والباطل المزين والفساد الملون بصبغ من الصلاح ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون بل كثيرا ما كانوا ويكونون ممن تملكهم الشهوات فاى وازع ياخذ على أيدى أصحاب السلطة ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوى المسكنة منهم من شره أولئك المتسلطين وحرصهم . لاجرم قد يكون الحاكم فى خفى أمره رئيس السارقين وفى جلى حاله قائد الناهبين وأعوانه آلات يستعملها فى الجور وأدوات يستعين بها على الفساد

والشر فيعطلون من حقوق عباد الله ويهتكون من أعراضهم ويغنمون من أموالهم يروون ظما شهواتهم بدماء الضعفاء وينقشون قصورهم بمهج الفقراء وبالجملة يكون مبلغ سعيهم هلاك العباد ودمار البلاد

﴿ الامر الرابع الاعتقاد بالالوهية ﴾

فاذن لم يبق للشهوة قامع ولا للاهواء رادع الا الامر الرابع أعنى الايمان بان للعالم صانعا عالما بمضمرات القلوب ومطويات الانفس سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بانه قدقدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة وفى الحق ان هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويعنانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستاصلان مادة التدليس وهما أفضل وسيلة لاحقاق الحق والتوقيف عند الحد وهما مجلبة الامن ومتنسم الراحة وبدون هذين الاعتقادين لا تقر رهيئة للاجتماع الانسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفو وصلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش

فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل وسدت عليها طرق الفضائل ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق وقد تقرر ان العلة الغائية لاعمال الانسان انما هى نفسه كما سبق فان لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه فما الذى يمنعه عن ذمائم الفعال خصوصاً اذا تمكن من اخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة

والمرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الاخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها (ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الاخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصا افقد ما عده من سائر صفات الكمال)

وقد تبين ان أول تعاليم النيشريين « الدهريين » ابطال هذين الاعتقادين « الاعتقاد بالله والاعتقاد بالحياة الابدية » وهما أساس كل دين وآخر تعاليمهم الاباحة والاشتراك فهؤلاء القوم هم الساعون في نسف بناء الانسانية وتذريته في ذيول السافيات يطلبون ضعضعة أركان المدنية وفساد الاخلاق البشرية ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة فيهلكون الامم باطفاء حرارة الغيرة واخماد ريح الحمية . هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة وأرومات الرذالة والدناءة واحلاس الخسة والنذالة واعلام الكذب والافتراء ودعاة الحيوانية العجماء محبتهم كيد وصحبتهم صيد وتوددهم مكر ومواصلتهم غدر وصداقتهم خيانة ودعواهم للانسانية حبالة ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة . يخونون الامانة ولا يحفظون السر ويبيعون ألصق الناس بهم بأدنى مشتهياتهم . عبيد البطون واسراء الشهوات لا يستنكفون من الدنية اذا أعقبتها عطية ولا يخجلون من الفضيحة اذا تبعتها رضيخة لا علم عندهم بالوقار ولا احساس لهم بالعار ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ولا وصل اليهم عن الهمة عبارة معبر أو تفسير مفسر الابن فيهم لا يأمن أباه والبنت لا أمان لها من كليهما . نعم أي حد تقف دونه حركات طبع الطبيعيين

قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الافاعي وترو رقة جلودها وانتظام الوقش فيها فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم فيصغى

لزخرف قولهم و يظن ان هؤلاء القوم من طلاب التمدن والاعوان على الاصلاح أو من الراغبين فى بث المعارف أو المنقبين عن الحقائق أو يتخيل ان منهم من يكون غوثاً عند الضيق أو عونا فى الشدة أو محزنا للاسرار عند الحاجة فذلك المغرور بمظاهر هذه الطائفة لا محالة يبكى عليه و يضحك منه فالضحك عجبا من غروره والبكاء حزنا على ضلاله

فتبين مما قررناه أن الدين وان انحطت درجته بين الاديان و وهى أساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس بالمدنية ونظام الجمعية الانسانية وأجمل أثراً فى عقد روابط المعاملات بل فى كل شأن يفيد المجتمع الانسانى وفى كل ترق بشرى الى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة الاولى

ولما كان نظام الاكوان قد بنى على أساس الحكمة ونظام العالم الانسانى جزء من النظام الكونى ألهم الله نفوس البشر أن تفزع الى مقاومة أولئك المفسدين « الدهريين » فى أى زمان ظهروا ومدافعة ما يعرض من شرهم « كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة والنفرة من الاغذية السامة » وأنهض حفاظ النظام المدنى الحقيقى وهو الدين لبذل الجهد وافراغ الوسع فى محو آثارهم واستئصال ما يغرسون فى تعاليمهم . لاجرم أن مزاج الانسان الكبير « يعنى عموم النوع » بما أودع الله فيه من الشعور الفطرى وهو أثر الحكمة الالهية العامة يمج هؤلاء الخونة ولا يحتمل وجودهم فى باطنه فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة أو الذنانة من المنخر أو النخامة من

الصدر لهذا تراهم وان حلوا بعض منازل الارض من زمان بعيد وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوى الشوكة لاغراض سافلة الا أنهم لم يثبتوا ولم يتم لهم أمر بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف كلما ظهر تقشع والنظام الحقيقى لنوع الانسان وهو الدين لم يزل قاراً راسخاً فى جميع الاجيال وعلى أى الاحوال

فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سبباً فى السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديه فى جوادّ الكمال الصورى والمعنوى ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتدين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وهذا آخر مادعت اليه الحاجة من المقابلة بين مذهب الدهريين وبين الدين على وجه عام وأثر كل من الامرين فى بنية الاجتماع الانسانى والله أعلم



مطلب

﴿ فى ان الدين الاسلامى أعظم الاديان ﴾

اذا نظرنا فيما بين أيدينا من الأديان وجدنا دين الاسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين ذلك أن عروج الامم على معارج الحق الأعلى وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الأجلى وصعود الاجيال على مراقى الفضائل وأشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق ونيلهم للسعادة الحقيقية فى الدارين كل ذلك مشروط بامور لا يتم الا بها

مطلب

﴿ فى الامور التى تتم بها سعادة الامم ﴾

الاول صفاء العقول من كدر الخرافات وصدإ الاوهام فان عقيدة وهمية لو تندس بها العقل لقامت حجابا كثيفا يحول بينه و بين حقيقة الواقع و يمنعه من كشف نفس الامر بل ان خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن وهذا مما يوجب بعده عن الكمال و يضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع . ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور

وحركات البهائم ويضطرب من هبوب الرياح ويتزعج لقصف الرعد والتماع البرق ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له فى الاخافة وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ثم يكون ألعوبة فى أيدى المحتالين وصيداً فى حبائل الماكرين والدجالين

وأول ركن بنى عليه الدين الاسلامى صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الاوهام فمن أهم أصوله الاعتقاد بان الله متفرد بتصريف الاكوان متوحد فى خلق الفواعل والافعال وان من الواجب طرح كل ظن فى انسان أو جماد علويا كان أو سفليا بان له فى الكون أثرا بنفع أو ضر أو اعطاء أو منع أو اعزاز أو اذلال ومن المفروض خلع كل عقيدة بان الله جل شانه ظهر أو يظهر بلباس البشر أو حيوان آخر لصلاح او فساد أو ان تلك الذات المقدسة نالت فى بعض أطوارها شديد الآلام وأليم الاسقام لمصلحة أحد من الخلق فضلا عما يحف بذلك من خرافات كل واحدة منها كافية فى إعمال العقول وطمس نورها

وأغلب الاديان الموجودة لا يخلو من هذه الاوهام ان شئت فاضرب بنظرك الى ديانة برهما ﴿ فى الهند ﴾ ودين بوذه ﴿ فى الصين ﴾ ودين زرداشت ﴿ فى بقايا الفارسين ﴾ وكثير من أديان أخر

﴿ الثانى ﴾

الامر الثانى أن تكون نفوس الامم مستقبلة وجهة الشرف طامحة الى بلوغ الغاية منه بان يجد كل واحد من نفسه انه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ماعدا رتبة النبوة فانها بعزل عن المطمع وانما يختص

الله بها من شاء من عباده ولا يذهب وهم احد من الامة الى انه ناقص الفطرة منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشيء من الكمالات فاذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة اعني الاقبال على وجوه الشرف تسابق كل مع الآخر في مجالات الفضائل وتمادت بهم المجاراة الى محاسن الاعمال فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الامور وشرائف المراتب ولو ان قوما أساؤا الظن بانفسهم واعتقدوا ان نصيبهم من الفطرة نقص الاستعداد وخسة المنزلة وان لا سبيل لهم الى الوقوف في مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب يسقط من هممهم على مقدار ما ظنوا في انفسهم و بذلك يتولى النقص أعمالهم و يعلك الخمود عقولهم فيحرمون معظم الكمالات البشرية و ينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية وتكون جولتهم في دائرة ضنكة محيطها دون ما ظنوا بانفسهم

ان دين الاسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الانفس وكشف لها عن غايته واثبت لكل نفس صريح الحق في اي فضيلة وانبأ كل ذي نطق بوفرة استعداده لأي منزل من منازل الكرامة ومحق امتياز الاجناس وتفاضل الاصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير. فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة وقد لا نجد من الاديان ما يجمع اطراف هذه القاعدة فلديك دين «برهما» قسم الناس الى اربعة اقسام احدها «برهمين» وثانيها «جهتري» وثالثها «ويش» ورابعها «شودر» وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها فاعلى منازل الكمال للبرهمن و يليها منزلة الجهتري والصنف الرابع اخسها وادناها في جميع

المزايا الانسانية وكان هذا التقسيم سبباً فى انحطاط المتدينين بهذا الدين وقصور خطاهم عن الرقى فى مدارج المدنية وانحسار افكارهم دون الوصول الى ما يطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة والعلوم الحقة مع انهم اقدم الامم واسبقها نظراً فى الكون وشؤونه ومن الاديان ما يغلب اليوم على امم من البشر و فى اصول تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب اسرائيل مثلا وكتابه المعروف يخاطب ابناء ذلك الشعب بالكرامة والاجلال و يذكر غيرهم بالتحقير والاهانة ثم جاء رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم وأغفل فيما بينهم حتى كانه لم يكن من دينهم الا أن ماسلبوه من الكرامة عن غيرهما انتحلوه لانفسهم فارتفع امتياز الجنسية من بين اهل الدين وخلفه امتياز الصنفية فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين فى قلوب الآخذين بدينهم حتى صار من عقائدهم ان صنفاً من الناس على منزلة القرب الى الله بحيث لا يرد الله له طلبة ثم الحجاب بين الله و بين سائر الاصناف لا يقبل الله من احد صرفاً ولا عدلا ولا يعتدله ولا يغفرله ذنباً بتوبة حتى يتوسط له اهل طبقة الرئاسة فعندهم ان كل نفس وان بلغت من الكمال ما بلغت ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبها على ابواب العفو الالهى ولا أن ترفع اليه طلب المغفرة لخطيئاتها بل لابد فى قبول ذلك منها ان يكون بواسطة الرئيس الدينى ومن آمن بالله وصدق به وأخذ باحكامه لا ينظر الله لايمانه حتى ينظر اليه الرئيس الدينى و يعتده إيماناً واستندوا فى هذه العقائد على نصوص من كتابهم تفيد أن ما يحلونه فى الارض يكون محلولا فى السماء وما يعقدونه فى الارض يعقد فى السماء وقد جلبت هذه العقيدة على اهل هذا

الدين شقاء طويلا وألقت بهم فى جهالة عمياء وذلة خرساء زمناً مديداً حتى ظهر فيهم مجددون نقضوا ذلك العقد وخالفوا فيه مااشتهر من نصوص الكتاب وقلدوا فى ذلك الدين الاسلامى وسموا مذهبهم الاصلاح ونشروه فى ممالك متعددة فلم يلبث قومهم بعد ذلك ان تكشفت عنهم جهلات وحلت من اعناقهم ربق ونهضوا من خضيض ذلة الى ذروة رفعة فنطقوا بعدما صمتوا وعلموا بعد ماجهلوا وحكموا بعدما حكموا وسادوا بعد ماسيدوا

«الثالث»

الامر الثالث ان تكون عقائد الامة وهى اول رقم ينقش فى ألواح نفوسها مبنية على البراهين القوية والادلة الصحيحة وان تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الاباء فيها فان معتقد ألاحث العقيدة فى مخيلته بلادليل ولا حجة قد لا يكون موقناً فلا يكون مؤمناً هذا والآخذ فى عقائد بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون والقانع بان آباءه كانوا على مثل عقيدته فاولى به ان يكون عليها يلتقى مع سابقة فى مضارب الوهم وفجاج الظن وأولئك المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت ادراكه فلا يذهبون مذاهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر واذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن اداء وظائفها العقلية بالمرة فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت و بئس المآل مآلهم

فان كان لا بد من الاستئناس لما نقول بقول أو ربى فهذا «كيزو»

الفرنساوى صاحب تاريخ «سيفيليزاسيون » اى التمدن الاوربى قال ان من اشد الاسباب اثراً فى سوق اروباالى تمدنها ظهور طائفة فى تلك البلاد قالت ان لناحقاً فى البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها ولوكان ديننا هو الدين المسيحى وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ماادعت من الحق محتجين عليها بان بناء الدين على التقليد فلما أخذت تلك الطائفة قوتها وانتشرت أفكارها نصلت عقول الاوربيين من علة الغباوة والبلادة ثم تحركت فى مداراتها الفكرية وترددت فى المجالات العلميـة وكدحت لاستحصال اسباب المدنية

ان الدين الاسـلامى يكاد يـكون متفرداً من بين الاديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية والقدح فى سيرتهم هذا الدين يطالب المتدينين ان ياخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب العقل وكلما حاكم الى العقل تنطق نصوصه بان السعادة من نتائج العقل والبصيرة وان الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة و إهمال العقل وانطفاء نور البصيرة و يرفع اركان الحجة لاصول من العقائد كل منها ينفع العامة و يفيد الخاصة وكلما جاء بحـكم شرعى اتبعه ببيان الغاية منه فى الاغلب راجع القرآن الشريف

وقلما يوجد من الاديان مايساويه أو يقاربه فى هـذه المزية واظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة ومن الاديان الظاهرة مابنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد أو الوحدة فى الكثير وان الواحد يكون أكثر والكثير يكون واحدا مما تنبذه بداهة العقل فلما انـكر

العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على انه فوق نظر العقل فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدي لدليل عليه ولا مرشد اليه يريدون انه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ أحكامه حتى يمكن الايمان بهذا الاصل مع ان العقل مشرق الايمان فمن تحول عنه فقد دابر الايمان وان فرقا بين ما لا يصل العقل الى كنهه لكنه يعرفه باثره و بين ما يحكم العقل باستحالته فالاول معروف عند العقل يقر بوجوده و يقف دون سرادقات عزته أما الثاني فمطروح من نظره ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من عقوده فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه اما أصول دين برهما فمن البين لكل ناظر فيها ان أغلبها مخالف لصريح العقل وذلك من جليات المسائل سواء اعترف أهل هذا الدين بثبوته أو كابروا بانكاره

﴿ الامر الرابع ﴾

الرابع ان يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الامة لا ينون في تنوير عقولهم بالمعارف الحقة وتحليتها بالعلوم الصافية ولا يألون جهداً في تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادها ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها وتكشف عن الاوصاف الفاضلة وحدودها وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها وتفضح مستور الرذائل وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها وتشتد في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تلهيها عنهما غفلة ولا تردها عنهما صعوبة وذلك ان بداهة العقل حاكمة بان جل المعارف البشرية والعقائد الدينية مكتسبة فان لم يكن في الناس معلم قصرت العقول عن درك ما ينبغي

لها دركه وانقطعت دون الكفاية مما يلزم لسد ضرورات الحياة الاولى والاستمداد لما يكون فى الاخرى وساوى الانسان فى معيشته سائر الحيوانات وحرم سعادة الدارين وفارق هذه الدنيا على اتعس الاحوال فاذن من الواجب الدينى اقامة معلم والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ولا لرغائب الانفس غاية تنقطع عندها فان فقد من بين الناس مقوم النفوس ومعدل الاخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع الى الحيف والاجحاف ومن طغت بهم شهوتهم سلبوا راحة غيرهم وهتكوا ستر أمنهم ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم بل يحترقون بنيران شهواتهم فيرافقون الدنيا على عناء ويفارقونها الى شقاء فاذن لابد من الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر القائم بتقويم الاخلاق وان من أهم الاركان الدينية فى الديانة الاسلامية هاتين الفريضتين « نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم واقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر » . راجع القرآن الشريف « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وغير هذه الآية آيات كثيرة « فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وسواها آيات وقد برز دين الاسلام على غالب الاديان فى العناية بهذين الامرين

وحيث كانت اركان الدين الاسلامى بالغة حد الكثرة فلو أخذت فى بيان ما يفيده كل ركن منها فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام الانسانى واقامة الدليل على ان كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الانسانية لخرجت عن القصد من هذه الرسالة

ولهذا أخذت على نفسي ان أضع رسالة تختص بذلك الغرض أبين فيها ان المدينة الفاضلة التى مات الحكماء على حسرة من فقدها لا تختط فى العالم الانسانى الا بالدين الاسلامى

فان قال قائل ان كانت الديانة الاسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن فجوابه ان المسلمين كانوا كما كانوا و بلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد بفضلهم وأكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

وهذا آخر ما أردت بيانه فى هذه الرسالة ينتهى به ما أجملته فى كشف سوآت النيشريين « الدهريين » ومضار طريقتهم فى المدنيــة والهيـئة الاجتماعية الانسانية وتوضيح الادلة على منفعة الاديان ولزومها لقيام النظام البشرى خصوصاً دين الاسلام والى الله المنتهى ورضاه المبتغى والصلاة والسلام على خاتم رسله وآله وصحبه وسلم

﴿ ويليها رسالة ﴾

(فى القضاء والقــدر)

رسالة في القضاء والقدر

للسيد جمال الدين الحسيني الافغاني

مضت سنة الله في خلقه بان للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض النبذ الماضية ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس ورب أصل الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطا في الفهم أو على خبث الاستعداد فتنشأ عنها اعمال غير صالحة وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ولا كيف يعرف ما اعتقاده والمغرور بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالباً بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال حتى افضى بما ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير

وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الاديان أو عقيدة من العقائد الحقة استنادا الى اعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين او العقيدة

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الاسلامية الحقة . كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والضعة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم اطوارا ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر فقالوا ان المسلمين فى فقر وفاقه وتأخر فى القوى الحربية والسياسية عن سائر الامم وقد فشى فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة ولكن متى أمكن لاحدهم ان يضر اخاه لا يقصر الحاق الضرر به فجعلوا باسهم بينهم والامم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى رضوا بكل عارض واستمدوا لقبول كل حادث وركنوا الى السكون فى كسور بيوتهم يسرحون فى مرعاهم ثم يعودون الى مارآهم الامراء فيهم يقطعون أزمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات وعليهم فروض وواجبات تستغرق فى أدائها اعمارهم ولا يؤدون منها شيئا . يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم أسرافا وتبذيرا . نفقاتهم واسعة ولكن لا يدخل فى حسابها شىء يعود على ملتهم بالمنفعة يتخاذلون ويتنافرون و يثبطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة كل منهما يخذل صاحبه و يستعدى عليه جارة

فيجد الاجنبي فيهما قوة فانية وضعفاً قاتلا فينال من بلادهما مالا يكافه عددا ولا عدة شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفزعون من الهمس و يالمون من اللمس قعدوا عن الحركة الى ما يلحقون به الامم فى العزة والشوكة وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم و يباهونهم بما يكسبون واذا أصاب قوماً من اخوانهم مصيبة او عدت عليهم عادية لا يسعون فى تخفيف مصابهم ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية يكون من مقاصدها احياء النيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغى الاقوياء وتسلط الغرباء هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار و زعموا ان لا منشا له الا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية وحكموا بان المسلمين لوداموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ولا ياخذون بحق ولا يدفعون تعديا ولا ينهضون بتقوية سلطان او تاييد ملك ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم و يركس من طباعهم حتى يؤدى بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفنى بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الاجانب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر و بين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بان الانسان مجبور محض فى جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون انفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ومتى رسخ فى نفوس قوم انه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب

تتعطل قواهم و يفقدوا ثمرة ما وهبهم الله من المدارك وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب واجدر بهم بعد ذلك ان يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم . هكذا ظنت طائفة من الافرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق ولست أخشى ان أقول كذب الظان وأخطأ الواهم وأبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى و زيدى وأسماعيلى و وهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض و يعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بان لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم و يسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهى الربانية الداعية الى كل خير الهادية الى كل فلاح وان هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعى و به تتم الحكمة والعدل

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى ان الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا ألا يشوبه اختيار و زعمت ان لا فرق بين ان يحرك الشخص فكه للاكل والمضغ و بين ان يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة وسهل على

من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ماهو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وارادة الانسان أنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا أثراً من آثار الادراك والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا ينكره أبله فضلا عن عاقل وان مبدأ هذه الاسباب التى ترى فى مظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبر الكون الاعظم الذى أبدع الاشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كانه جزء له خصوصا فى العالم الانسانى

ولو فرضنا ان جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود الله صانع للعالم فليس فى امكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الارادات البشرية فهل يستطيع انسان ان يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه . هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين ران بعضا من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان فى اثباتها ولسنا فى حاجة الى الاستشهاد بارائهم

ان للتاريخ علما فوق الرواية عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الامم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والاخلاق والافكار بل فى خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكون الدول أو فناء بعضها واندراس أثره . هذا الفن الذى

عدوه من أجل الفنون الادبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر والاذعان بان قوى البشر فى قبضة مدبر الكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتاثير وما انحط رفيع ولا ضعف قوى ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة و يبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الاسود وتنشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال و يحليها بحلى الجود والسخاء و يدعوها الى الخروج من كل مايعز عليها بل يحملها على بذل الارواح والتخلى عن نضرة الحياة كل هذا فى سبيل الحق قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة الذى يعتقد بان الاجل محدود والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . واندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها و يتسلطون عليها فادهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا

الدول وقهروا الامم وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين مع قلة عددهم وغددهم وعدم اعتيادهم على الاهوية المختلفة وطبائع الاقطار المتنوعة أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والاكاسرة فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات

دمروا بلاداً ودككوا أطواداً ورفعوا فوق الارض أرضاً ثامنة من القسطل وطبقة أخرى من النقع وسحقوا رؤس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤس النابذين لسلطانهم وأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة ومن كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء والقدر

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع مايملكون من رزق فى سبيل اعلاء كلمتهم لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم كانما يسيرون الى الحدائق والرياض وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم

وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ولا تأخذ النساء رهبة ولا تغشى الاولاد مهابة . هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد افلاذ الاكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به فى قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

(بكاى على السالفين ونحيبى على السابقين أين أنتم ياعصبة الرحمن وأولياء الشفقة أين أنتم ياأعلام المروءة وشوامخ القوة أين أنتم يا آل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة أين أنتم ياخير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أين أنتم أيها الامجاد الانجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الامة ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم انحرفوا عن سنتكم وجاروا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم وتفرقوا فرقا وأشياعا حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً وتحترق الاكباد حزناً . أضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ولا دفاعاً عن حوزتهم ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ويوقظ النائم ويهدى الضال الى سواء السبيل . انا لله وانا اليه راجعون)

أقول وربما لا أخشى واهماً ينازعنى فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت فى

أواسط الطبقات ثم رقى بهمته الى أعلى الدرجات فذللت له الصعاب وخضعت الرقاب و بلغ من تسطة الملك مايدعوا الى العجب و يبعث الفكر لطلب السبب الا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله الا نسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة فما الذى يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر وركون قلبه الى ان المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر

اثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسى (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف فى تاريخ الاقدمين ما تسمى له الظفر فى فتوحاته الواسعة الا لانه كان معتقداً بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة وان اسكندر الاكبر اليونانى كان ممن رسخ فى نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيزخان التترى صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد بل كان نابليون الاول بونابرت الفرنساوى من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء وهى التى كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة فيتهيأ له الظفر و ينال بغيته من النصر

فنعم الاعتقاد الذى يطهر النفوس الانسانية من رزيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله فى طبقته ايا كانت نعم انا لا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان هذا سبباً فى رزيتهم ببعض المصائب التى أخذتهم بها الحوادث

فى الاعصر الاخيرة و رجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم فى تخليص هـذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع و يذكرون العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون و ينشروا بينهم أئمتنا رضى الله عنهم كالشيخ الغزالى وامثاله من ان التوكل والركون الى القضاء اعما طلبه الشرع منا فى العمل لا فى الباطلة والكسل وما أمرنا الله ان نهمل فروضنا و ننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامى فى ان الدفاع عن الملة فى هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين و بين الالتفات الى عقائدهم الحقة التى تجمع كلمتهم وترد اليهم عزتهم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الاول الا دعوة خير من علمائهم وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم

اما مازعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشاه هذه العقيدة «ولا غيرها من العقائد الاسلامية» ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار . ثم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان صدمة من طرف الشرق وهى غارة التتر من جنكيز خان واحفاده وصدمة من جهة الغرب وهى زحف الامم الاوربية باسرها على ديارهم وان الصدمه فى حال النشوة تذهب بالرأى وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة و بعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة و وسد الامر فيهم الى غير

أهله و ولى على أمورهم من لا يحسن سياستها فكان حكامهم وأمراؤهم من جرائيم الفساد فى اخلاقهم وطباعهم وكانوا الجلبة لشقائهم و بلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت انظار كثير منهم على ملاحظة الجزئيات التى لا تتجاوز لذته الآنية واخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر و يلتمس له السوء من كل باب لا لعلة صحيحة ولا داع قوى وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط وأدى الى ماصاروا اليه

ولكننى اقول وحق ما أقول ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة ماخذها من قلوبهم ورسومها تلوح فى أذهانهم وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم وكل ماعرض عليهم من الامراض النفسية والاعتدال العقلى فلابد أن تدفعه قوة العقائد الحقة و يعود الامر كما بدا و ينشطوا من عقالهم و يذهبون مذاهب الحكمة و التبصر فى انقاذ بلادهم وارهاب الامم الطامعة فيهم وايقافها عند حدها

وماذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ودوخوا البلاد وارغموا أنوف الملوك ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية حتى كان السلطان العثمانى يلقب به الدول بالسلطان الاكبر

ثم ارجع البصر تجد هزة فى نفوسهم وحركة فى طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الاخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب حركة سرت

فى افكار ذوى البصيرة منهم فى أغلب الانحاء شرقاً وغرباً وتالفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعى بغاية الجهد لبث افكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الاشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض مايضمره الاجانب لهم وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم نسال الله تعالى نجاح أعمالها وتاييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه ان يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما وللمسلمين خصوصاً

﴿ تمت الرسالة ﴾

(والحمد لله أولا وآخراً)



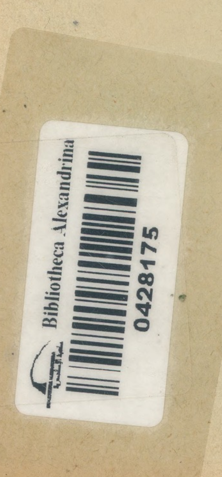


ناظر مدرسة نذير أغا الاولية الاميرية بمصر

(ثمن النسخة ستة قروش صاغ)

(الطبعة الأولى)

(سنة ١٣٣٠ هـ — سنة ١٩١٢ م)


Bibliotheca Alexandrina
0428175